obeikandl.com

لقمة العيش

لقمة العيش

كمال رحيِّم

الغلاف / **هانيبال – هيبو**
سلسلة من كل بلد كتاب
الطبعة الثالثة / القاهرة 2011

رقم الإيداع: 2011/ 8413
ISBN: 978 – 977 – 6299 – 33 – 7

وكالة سفنكس
7 شارع معروف، الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: 002 02 25792865
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه، وبأيّة وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية أو التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة أخرى للنشر دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.
Sphinx Agency © 2011

لقمة العيش

قصص

كمال رُحيمّ

وكالة سفنكس

obeikandl.com

obeikandl.com

بكل التقدير
أهدي هذا العمل للأستاذ محمد كامل . .
أشهر قارئ للأدب في زمن عزت فيـــه
قراءة الأدب . .

obeikandl.com

obeikandl.com

البقاء لله

obeikandl.com

obeikandl.com

سقطت من الباب الخلفي للباص وتبعثرت أشيائي ..

كنت عائداً من المدرسة والدنيا زحام، فدفعتني يدُ بلا قصد وأنا أسرع بالنزول، فانكفأت على وجهي وطحت على أول درجة لسلم الباص فالثانية، وأخذتني الأقدام بعدها إلى الأرض.

لم تسلم الحقيبة هي الأخرى من الأذى، ديست وانفتحت حتى آخرها وراح كل شيء هنا وهناك، الأقلام، الممْحَاةُ، المبراة، كراسة ربما أو كراستان، ووجبة الإفطار التي لفتها لي أمي في خرقة دمور. فلم أضع في فمي شيئاً من الزاد من أول النهار حتى الآن، لم تهف نفسي لا للحلاوة الطحينية ولا للبيضة المسلوقة أو لمست رغيف الخبز. زهدت الأكل كله، حتى وجبة الطعام التي أخذتها معي بالأمس رجعت بها كما هي.

لا يحدث هذا الأمـــر عـــادة، فغالباً ما يكون الزحـــام خفيفـــاً أو أجد من يقدم لي العون. يدُ تلتف حول يدى وتهبط بي سلم الباص على مهل وبقدر خطوتي، أو أشعر بمن يربت على كتفي ويدفعني

إلى الأمام دفعاً رقيقاً، ولم أكن أعدم من أصحاب القلوب الرحيمة وألقى من يحملني منهم أنا وحقيبتي حتى يصل بنا إلى الأرض سالمين.

إلا يوم السوق ..

كان هذا اليوم يوماً وبالا على أمثالي وطالما عملت له ألف حساب، فقد كنت صغيراً نحيلاً لا وزن لي ولا حجم، وأشبه ما أكون بعقلة الإصبع قياسا على باقي الركاب.

صبيةٍ كبار يحملون لفائف معقودة بدوبارة أو زيق من القماش، ولا يكفون عن الضرب بالكوع أوالدفع بالكتف للظفر بموضع قدم في الباص. رجال طوال عراض وجوههم عركت الحياة وامتلأت بالتجاعيد حتى أنك تحسبهم أهل حكمة ومن العقلاء، لكن الويل لنا لو كان واحد منا في طريقهم على سلم الباص. نسوة غلاظ يحملن على رؤوسهن طسوتاً وأقفاصاً من الجريد، ولا يسلم الأمر من آدمي يحمل بين يديه عنزة صغيرة ويصعد بها عنوة بين الناس.

وقفف ومقاطف وسلال تدفعها الأيدي كي تمرق بين شبابيك الباص، ناهيك عن المحصل الذي كنا نشتمّ رائحة بذلته الميري من قبل حتى أن نراه، وهو ما شاء الله لا يمـــل منا أو يكل والمنديـــل الذي يضعه أسفل ياقة سترته يشر عرقاً، ويجعله أقرب إلى خـولـي الأنفار من موظف بهيئة النقل العام.

كان حرياً بي أن أعرف قدر نفسي وألا أزاحم على الباب، غير أني فعلتها هذا اليوم بالذات.

كنت مكروباً، مخنوقاً، روحي في أنفي وأود الانعتاق من هذا الباص، والعدو بقدر ما تتسع قدماي. وددت لو آكل الشارع بقدميَّ، أن أطير وأصل إلى باب الدار لعلي أسمع خبراً عن أخي الذي أمسكت به الحمى من ثلاثة أيام.

فعلتها وهويت إلى الأرض .. غير أني سرعان ما لقيت من يأخذ بيدي ويلملم لي أشيائي، وطفقت أجري من شارع إلى شارع ومن ناصية إلى طريق حتى دلفت من الباب ..

لم أنتبه إلى أمي أول الأمر، كانت تائهة في النسوة اللائي يحطن بها بثيابهن السود. هي التي استدلت عليَّ، وبدا لي وجهها وكأنه مشلول، وعيناها حمراوين وتنضحان بقهر لا تعرفه إلا الأمهات.

أومأت لي أن أتقدم غير أني لم أقدر، خذلتني قدماي، وعلى مسافة منها ومني تحدق فينا دُميةً من القماش اشتراها أبي لأخي ابن السنتين الذي مات ..

قالت لي أمي بعد أن كبرت، بأني لبثت شهراً بطوله راقداً في الفراش، أبكي وأنادي على أخي الميت بأن يعود، ولم أكف وأنا نائم عن الكلام مع نفسي بصوت مسموع.

* * *

obeikandl.com

أحباب الله

obeikandl.com

obeikandl.com

زوجة أبيه هي أول من اكتشف أنه عبيط ..

كانت تحتاط منه، وتحذر ولديها الصغيرين من اللعب معه حتى لا يفقأ عين واحد منهما، أو يدفعه بيده من فوق دَّرج أو أمام دابة تسير.

لم يكن يفهم أنهما ليسا شقيقيه ولا أنها زوجة أبيه، وأبوه يخرج من أول النهار ولا يعود إلا بعد أذان العشاء.

غالباً ما يجده نائماً، يمد يده ساحباً الغطاء على ما تعرى منه، ويجمع ما يلقاه من أشياء حادة في سيالته أو ملقاة إلى جانبه، مسمار، ملعقة، قرن جاموسة، أو قدح مشروخة حافته. يلملمها خوفاً من أن تصيبه بأذى، ويميل عليه ماسحاً بأصابعه الرَغَاوِيَ التي تحيط بفمه وما علق به من ذرات الطعام.

يتبـرم من أصـــابع أبيه، يدفعها عنه بحركة آليـــه وعينـــــاه

مغمضتان وتزداد وتيرة تنفسه، تبدو كاللهاث، وكأنه في حُلم والذي يجـــري من أبيه ضمن زمام الحُلمِ الذي يحلمه.

لا يتذكره أبوه في الصباح إلا وهو على عتبة الباب الخارجي، يكون مكروباً وينادي عليه مرة واثنتين وثلاثا حتى يأتي، جلبابه مشموراً ودخل بعضه في السروال، وشعره مشوشاً كل شعرة في اتجاه. يشير له بإصبعه كي يصلح هندامه، ويسأله عن حاجته ..

إن كان يريد كذا أو كذا أو كذا؟

وهو يدعك عينيه، ويهز رأسه على نحو لا يفهم منه إن كان يريد أو لا يريد! فيخرج له من حافظته عملة معدنية أو ورقة بعشرة قروش. كان يقلبها في كفه حائراً في جدواها وأسرارها، وما تلبث أن تسقط من بين أصابعه لتلتقطها يد أخ من أخويه.

وأفردوا له أخيراً غرفة يبات فيها، بعد أن اتهمته زوجة أبيه بأنه يتقلب في الفراش ويرفس برجليه، وأنها تخشى أن ينكفيء بجسده الكبير على أحد أولادها فيقتله.

لم يرق للأب هذا الكلام أول الأمر، وذكرها بأن الأربعة أفدنة التي يزرع ويقلع فيها هي ورث أمه وأن البيت كله يعيش عالة عليه، غير أنها غلبته بإلحاحها وخصصوصاً له خادمة عجوز اسمها (أم السعد) لتفي بطلباته.

* * *

الولـدان يقتربان منه بحذر، وقد تغلبهما الشقـــاوة مرة فينخســانــه

بعصا ويجريان. يسعده هذا اللعب ويعدو وراءهما مهللاً محطما أي شيء يعترض طريقة، وإذا أمسك بواحد منهما كان يتلوى ويصرخ في يده، ويمسك له الولد الآخر بحجر كي يدع أخاه فيذعن مستغرباً مما يفعلانه معه، ويحثهما على إكمال اللعب بإشارات من يده ولسانه الثقيل المضطرب.

رأته زوجة أبيه مرة على هذا الحال فأمسكت له العصا، وحذرته من اللعب مع الولدين أو حتى الكلام معهما، ومن يومها ابتعد عنهما.

بدأ في اللعب مع نفسه ..

بحذاء بسطة السلم المؤدية إلى الحوش كانوا يكومون القش وأعواد الحطب والكراكيب التي لا لزوم لها، يختبيء وراء أية كومة منها ظناً منه أن أحداً يطارده ويرفع رأسه بين الحين والحين متابعاً حركة البيت، وعندما تقترب منه أية أقدام كان يهبط برأسه كي لا يكتشف القادم وجوده ويمسك به.

يظل على هذا الحال بالساعة والساعتين، دون أن يشعر به أحد إلى أن تنتبه أم السعد وتفهم مقصده فتفاجئه من الخلف صائحة، فيهب واقفاً ويجري منها هنا وهناك، ذرات قش أو عقلة حطب عالقة بجلبابه وبقدميه فردة مداس واحدة. وعندما تمل منه تأتي له بطست مليء بالماء فيقعى أمامه يضرب الماء بكفيه متابعاً تموجه، أو يخرج إلى الترعة المحاذية للبيت ساقاه مقوستان وجلبابه مرفوع ومعقود عند خاصرته، ويتلفت حوله كلما خطا

كأنما أحد يترصده.

يبدو ملفتاً لمن يعبرون الطريق ..

كانوا يرمقونه بنظرة طويلة ثم يمضون، ومنهم من يشير له فيرد الإشارة ضاحكاً، أو من يقترب منه ويسأله أن يدعو له فيرفع ذراعيه إلى السماء مهمهماً ويهز رأسه له بما يفيد أنه فعل. أما الأولاد والصغار منهم خاصة كانوا يتجنبونه، وإذا رآه واحد منهم أمام البيت أو يعبر الطريق متجهاً إلى الترعة، كان يثبتَ في موضعه برهة مفكراً في حيلة تمكنه من إكمال سيره دون أن يناله منه أذى، ومنهم من يؤثر السلامة ويعود من حيث أتى.

* * *

نقيق الضفادع يجذبه نحو الترعة ..

النقيق يعلو ويخفت مع حركة قدمه، فينحني ملتقطاً عوداً من الحطب ينكش به بين الحشائش ونباتات ورد النيل الطافية، وإذا لقي ضفدعة تقفز هاربة يعود خطوة إلى الوراء محتاطاً، ويميل بعنقه متتبعاً مسارها. ولم يكن حجر جلبابه يخلو من الأحجار والحصى، يظل يقذفها متابعاً الدوامات التي تحدثها، ومرة بعد مرة أخذ يميز بين صوت ارتطام الحجر والحصى، وتدور برأسه مقارنات بين الدوائر التي تجري على سطح الماء إذا رقق ساعده، أو كانت الرمية بغشم.

شغلته هذه اللعبة حتى أتقنها ..

لم يتوقف إلا عندما تحرش به بعض الصبية، وأخذوا يقذفونه ـ

هو نفسه ـ بالأحجار فأسرع إلى البيت ولم يعد يغادره. اكتفى بالقعود على دكة بمدخل البيت متابعاً حركة الدواب التي تسير على الطريق، وكانت تشده المركبات خاصة. تلتقط أذناه هدير محركاتها من بعيد وتظل عيناه عليها إلى أن تختفي، أو يدخل إلى صحن البيت متأملاً حركة الشمس على أي جدار، وعندما تغمر الثياب المعلقة على أحبال الغسيل. وأول ما تصل أشعتها إليه من بين فراغات الثياب على شكل بقع مضيئة، كان يمد قدمه متنقلاً بين هذه البقع ويرمقها صامتاً، وكلما اختفت واحدة يتلفت باحثاً عن الموضع الذي اتجهت إليه.

وكلما ضاقت الدنيا في وجهه كانت أم السعد تدنو منه، وحكاية في حكاية، وهو عيناه ما بين شفتيها وحركة يدها عندما تحكي له عن أمه الميتة، ويتهدل فمه مع همهمة مفعمة بالرضا وهي تعده بأنها سوف تأخذه يوماً إلى بيتها الذي تطير منه إلى السماء كل فجر لتلعب مع الطيور والملائكة.

يلتفت مع أصابعها التي تشير إلى الجهة القبلية حيث المقابر ودمعة تعلق بأهدابه، ويحدق في السمـــاء مشـــيراً بإصبـــعه، فتـــقول له: نعم .. نعم .. مع الملائكة.

يسألها أن يذهبا إليها الآن وينتظراها عند بيتها، فتربت عليه حانية ..

* * *

اختفى يوماً إلى أن أتوا به ..

كان حافياً وصرة في يده تحوي كل ملابسه، قالوا لأبيه: إنهم وجدوه على السكة القبلية متجهاً صوب المقابر، وأنه لولا أن ولداً من أولادهم عرفه ودلهم عليه لما تمكن أحد من العثور عليه بعدها.

أطرق الأب وإلى جواره زوجته مطرقة، وكف الولدان عن الحركة، طفقا يحدقان فيه وهو يلج الباب الخارجي.

كانت صفحة وجهه جامدة، وبدا غير مكترثاً بوقوفهم له.

مضى وكأنه لم يرهم، حتى السعلة التي انتابته لحظتها لم يشأ اخراجها في وجودهم، وتبادلوا هم النظر ثم تعلقت أبصارهم به من الوراء حتى توارى بغرفته.

* * *

في أول النهار

obeikandl.com

obeikandl.com

بدت الدنيا غريبة في هذا اليوم ..

الدور أكثرها مغلق وخلا الطريق من الناس، وعلى أسطح البيوت كانت النسوة والبنات الكبار صامتات وينظرن بشغف نحو شيء بعيد، أما العجائز فكن يتنسمن أي خبر من فرج الشبابيك.

الحركة كانت آتيه من هناك، من عند الجسر القديم ..

أنفار يدقون بمعاولهم في قطعة أرض خلاء، كانوا عشرة أو أزيد بقليل ويرتدون فانلات بأكمام وسراويل مشمرة حتى منتصف الساق. وكلهم على شاكلة واحدة، حتى رؤوسهم جميعاً ملفوفة بشيلان عليها نفس الرسوم، ووراءهم رجل أكتع بجلباب معقود على خاصرته وسروال قصير. شعر فخذيه كان كثيفاً على نحو غير مألوف، وعندما يلتفت ناحية اليسار كانت شحمة أذنه اليمنى تبدو مشقوقة نصفين، وأسفل منها جرح قديم بطول وعرض الإبهام.

لم يكن وجهـــه غريباً عنا، كنــا نعرفه، الأنفار هم الذين كانــوا غرباء، خمنا أنهم من العاملين في طائفة المعمار الذين يأتون من جوف الصعيد.

الدنيا ساعتها كانت أول النهار وغمام كثيف يملأ السماء، وريح محملة بغبار خفيف بدأت في الهبوب. وكنا نرى أهل البلدة وهم جالسون تحت شجر الكافور وأمام وابور الطحين، لا حس ولا حركة وينظرون، وقبلهم بقليل عيال كبار يكمنون بجوار وابور المياه وعلى حواف الجسر القديم.

* * *

أتى رجل على حمار ..

كان سميناً وشاربه كثاً يختلط فيه البياض بالسواد، ولما نزل اندهشنا لقصر قامته، فلم يرد في خاطرنا أبداً أنها لا تزيد سوى قيراط أو قيراطين عن قامة الولد الكبير. أزاح العمامة قليلاً إلى الوراء ووقف يتلكأ بعينيه في المكان، ثم اتكأ بمرفقه على ظهر الحمار يتكلم مع أحد الفلاحين، وشيئاً فشيئاً تكاثر عليه الناس، وقفوا كلهم يتكلمون وعيونهم على ما يجري في الأرض الخلاء، واحد منهم كان منفعلا ويذكره بمقامه بين الناس وألا يتراخى كي لا يراق دم أو يعود الخلاف القديم.

هرش الرجل السمين أسفل ذقنه وهو يتابع النظر لبعيد، ثم هز رأسه للناس ومشى صوب الأكتع ذي السروال القصير، ووقف الحمار في مكانه يقضم الحشائش النابتة على حد الطريق، استلقى

بعدها على جنبه وراح يغمر جسده في التراب. تأفف بعض الجالسين ورماه واحدُ منهم بحجر في رأسه، فهب الحمار واقفاً تاركاً لهم المكان.

اجتاز السمين حافة الأرض الخلاء، ووقف برهة يدعك عينيه ويميل بوجهه عكس اتجاه الريح. طالت وقفته قليلاً، بدا لنا وكأن الأمر منه وليس من الريح. ودخل وراءه الحمار، نهره عدة مرات كي يرجع فلم يعبأ به الحمار، طفق يشتم الأرض ويبحث بعينيه عن ورقة شجر أو عود برسيم. وأدخل هو كلتا يديه في فتحتي الجلباب، ووقف برهة ثانية يسوي الصديري والسروال ثم تنحنح بصوت عال وخطا خطوة التفت بعدها إلى دار قريب، جدرانها من الطوب الأحمر ولها باب حديدي لم يكن مألوفاً في تلك الأيام.

مشى بعدها بضع خطوات والتفت مرة أخرى ناحية الدار، لم يعاود الوقوف بعدها أو الالتفات. مضى في سيره وفي إثره الحمار، حتى لحق بالأكتع ذي السروال ووقفا يتكلمان.

وعلى الجانب الآخر من الجســـر القديم كـانت حقول القطن تمتد كثيفة إلى الأمام، وأنـــــــاس ما زالوا يأتون منها ومن الشوارع البعيدة والحارات وأول ما يقتربون يجلسون بلا كلام.

وغابت الشمس ..

لم يعد ضوؤها يأتي إلينا إلا كلما انفرج الغمام، وأسلمت شواشي الشجر نفسها للريح، كنا نسمع حفيفهـــا ونراها وهي تميل معه وتدور.

* * *

أطلت بنت من الباب الحديدي للدار القريب ..

هيكلها صغير، وملامح وجهها دقيقة لا تستبين. تلفتت حولها ووقفت ساهمة للحظات، بدت وكأنه أخذتها رجفة من كثرة الناس. أمسكت بأطراف طرحتها الخضراء وعقدتها أسفل ذقتها مخافة الريح، وجلست على بعد خطوتين من الباب تلعب في التراب، تقبض عليه بكفها ثم ترفع يدها عاليا وتتركه للريح، وعندما يفرغ كفها تملأه من جديد. استقامت واقفة بعدها، وانثنت تحجل على ساق واحدة جيئة وذهابا أمام الدار، وكلما زلت قدمها تميل برأسها مدارية كسوفها من الناس.

لم تمض برهة حتى رأينا امرأة تخرج مسرعة وتشدها من طوق الجلباب، وسمعنا بعدها جلبة وأصواتاً كالبكاء تأتي من جوف الدار، أعقبها خروج رجل من الباب.

أول ما خطا خطوة عرفناه، واسترعى جلبابه أنظارنا، قلنا كلنا: إنه جلباب النوم، ولما استدار بان السلاح، بندقية بروحين من تلك التي يصطادون بها الطيور.

سعل سعلتين تلفت على إثرهما حوله وصوب الأرض الخلاء، ثم أحنى رأسه قليلاً متقيا الغبار ومشى على مهل ونحن نحلق بأبصارنا فيه. ولما انكفأ على وجهه في البلل الذي يغطي حافة الأرض الخلاء، أحسسنا بأن بصره ضعيف، وبانت لنا ساقاه عاريتين وكأنهما متورمتان ومليئتان بالعروق، وأول ما أمسك

بنفسه ونهض التفت وراءه. كانت امرأته وبناته الثلاث قد ظهرن على الباب، لاح الغضب في عينيه وأشاح لهن بيده، فسحبت الأم بناتها ووارت الباب.

البنت الصغيرة هي التي جذبت كفها من يد أمها وجرت وراءه، صاح فيها عدة مرات غير أنها لم ترجع أو تبال بطرحتها التي أخذتها الريح. مال على الأرض وقبض على حفنة تراب، حثا بها قبالة وجهها فرمقته بنظرة واجفة واستدارت عائدة. أسندت ظهرها إلى حائط الدار رافضة الدخول، وشد هو الجلباب المثني على مؤخرته وعاود السير بتؤدة وكأنه ليس ذاهباً إلى قتال.

* * *

تلاحقت زوابع الغبار وراء بعضها، وعبقت الجو بعكارة وتراب. كنا نرى القوالـــح الجافة والأشواك وهي تجرى أمامها بالأمتار، وكانت الأوراق المتساقطـة من الشجر لاتصل إلى الأرض أبداً، تدور حول نفسها عدة دورات وهي تهبط وسرعان ما يسحبها الريح معه ثانية إلى السماء. ولم يبرح واحد منا مجلسه، حبسنا كلنا الأنفاس نترقب اللحظة التي يبدأ فيها العراك.

تقدم الرجل عدة خطوات ونقل السلاح من الشمال إلى اليمين، فصاح فيه السمين من بعيد أن يقصر الشر ويعود، وتحسب الأنفار، سرت بينهم همهمة خفيفة أول الأمر، لملموا معاولهم بعدها ووقفوا ينظرون.

عاود السمين الصياح، ومن شدة الانفعال تقلقلت العمامة على رأسه، وكاد أن يتعثر في مقطف مقلوب، وانتبه له الحمار وبدأ هو الآخر في النهيق. كان منظرهما لافتا، ولولا رهبة المقام لأفلتت مني ضحكة أنا ومن معي من الصبيان. ظللنا واجمين مثلنا مثل الناس، لم تثر الجلبة إلا عندما انقض الأكتع على معول في يد أحد الأنفار، وعندها توقف حامل السلاح. خطر لنا أنه عدل عن تصميمه ويود الرجوع، خابت ظنوننا لما رأيناه يكسر ماسورة البندقية ويحشوها بخرطوشين، ولم يتوان الأنفار لحظة واحدة، طاروا كلهم وأطلق هو العيارين في الهواء.

وقبل أن نأخذ أنفاسنا غافلنا الأكتع، نزل بالمعول على رأس الرجل من الوراء، ضربه مرتين، انكفأ على إثرهما في مكانه ثم قام برأسه، بدا منتبهاً للحظة استدار فيها نصف دورة ناحية الأكتع ووقع بعدها في التراب.

الروح لا تزال فيه ..

زحف مسافة ذراع حتى مالت منه رأسه ناحية اليمين، بذل جهدا ليعيدها غير أنه لم يقدر، وجهداً آخر ليعاود الزحف أو يقوم، وعندما سقطت منه رأسه عرفنا أنه فقد الزمام ولم يعد له على بدنه أي سلطان.

لم يدم الأمر أكثر من ثوان، ارتج مرتين بعدها وهمدت حركته إلا عينان شاخصتـــان تخالهمـا لايزالا ينظـــران. وقبل أن نفيق، انداالصوات من أعلى البيوت، وعن بعد لمحت البنت الصغيـــرة

تقوم وتنكفئ وهي تعدو صوب أبيها الراقد على التراب ..

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

مشوار

obeikandl.com

obeikandl.com

مضى شوط من الطريق وهما صامتان، خرجا من شارع ودخلا في آخر ودلفا يميناً ويساراً، ولم تبق غير فركة كعب ويؤذن لصلاة العشاء.

الناس كلهم في البيوت والشوارع خالية إلا من صنف الحيوان، كلب أو قطة أو سحلية تجري على جدار، وهي تسبقه بعدة خطوات، قامتها نحيلة وصرة (الهدوم) في يدها تروح وتجيء.

أسرع حتى سار بمحاذاتها، قائلا بصوته الرفيع:

- الدنيا عتمة يا خالتي، متخلينا لبكرة.

- ملكش حق بقى يا جلال! كل يوم تقول خلينا لبكرة! أبوك كده هيزعل، دا باعت بدال المرسال عشرة!

- أنا خايف لمرات أبويا تضربني؟

- تقدر! تضربك دا إيه! جتها ضربة في قلبها.

ثم لفت ذراعها على كتفه، وأردفت بصوت ناعم:

- وهو إنت تايه عنها؟! دي كانت جارتكم وآهي عارفاك وإنت عارفها!

أفلت منها ضـــارباً الأرض بقدمه، ثم استـــدار إليهـا حانقاً:

- يارب تموت هي كمان.

رمقته وسكتت، فأطرق رأسه هو الآخر ومشى إلى جوارها صامتاً.

كانت تسير بخطى رتيبة، وجهها ساكن غير أنه مشغول ..

زوج عقيم، ولا أهل لها أو ولد ..

لم يكن لها في الدنيا إلا أختها، وأكلها الموت في غمضة عين.

لو كان في الدنيا عدل لبقى الولد معها، هي أحق به من أبيه المركوب ابن المركوب! عشر سنين وأختها تحت قدميه، تخدمه العبد للسِيد، لا عشرة راعاها هذا الحلوف ولا حزن بان عليه، لا هو ولا زوجته الجديدة الإبليسة بنت الإبليس!

دخلت على فرشها وهدومها ومصاغها، طبل وزمر، وزفة وزغاريد، وضرب نار، (والأكادة) أنه كان ملهوفاً على الزواج كأن أختها كلبة وراحت، فلا انتظر مرور حَوْلُ عليها كما يفعل الناس أو حتى طال صبره لما بعد (الأربعين).

من قبل أن تموت أختها والولد عندها، يأكل من يدها ويلعـــب وينام أمام عينيها. يخاف من العفـــاريت، تترك له لمبة الجـــــاز

والعة طول الليل، يقوم مفزوعاً تجري عليه وهي في عز النوم، وإن تململ زوجها أو برطم تضحك عليه بكلمتين.

* * *

ساعة زمن وينتهي كل شيء ..

ترجع وحدها، وتترك الولد في يد زوجة أبيه ..

مشوار لم يكن في البال، وهم كبير في انتظارها، نبتة أخذتها الريح وجلسات طويلة أمام عتبة الباب، وزوج غافل عن حجر الطاحونة الذي يفري القلب.

ازدادت خطواتها رتابة، والولد يرمق الصرة في يدها وقلبه هو الآخر يقول ويعيد.

ألح عليه طيف أمه ..

آخر مرة رآها فيها، يوم أن جاءها الطبيب إلى البيت ..

كانت ممددة على السرير، والطبيب يميل عليها بسماعته وحقيبته مفتوحة حتى آخرها. خالته وامرأة من الجيران كانتا تستندان بمنكبيهما إلى الجدار، والباب موارب ومنه تطل رؤوس، وهو في طرف الحجرة لا يلحظه أحد.

لم يكن يعرف أن أمه سوف تموت، باله كان مطمئناً من هذه الناحية، لم يدهمه القلق إلا لما أرسل أبوه سيارة إلى البندر لتأتي بالطبيب. دنا من خالته، فأخذته في حجرها وهمست في أذنه قائلة:

" مفيش حاجة يا جلال، دا الحكيم جاي بس علشان يديها شوية

مقويات ".

تسلل وراء الطبيب ..

عيناه تبحثان في محتويات الحقيبة، مقياس للحرارة، قلم جاف، وأوراق بيضاء أصغر من حجم ورق الكراسة. لم يكن بها لا أدوية ولا مقويات، والطبيب لا يزال يتنقل بالسماعة على صدر أمه. القلق باد على وجهه، وأنين مكتوم ينبعث منها. مال بعنقه نحوها. تبسمت. استدار الطبيب إليه. تبسم له هو الآخر.

كان الوقت ليلتها لا يتحرك ..

أبوه يروح ويجيء أمام الباب، ونسوة يجلسن في صفين متقابلين على حصيرة بالدهليز، صامتات يتبادلن النظر، وطفلان لا يكفان عن الضحك و يحبوان جيئة وذهاباً دون أن تشير لهما يدُ بأن يكفا عما هما فيــه.

سرت شرارة نار في الجميع، عندما هب الطبيب واقفا. كانت خالته أقرب واحدة إليه، قال لها: " هيه الحاجة أختك؟ "، أومأت بالإيجاب فأردف وعيناه تتحاشان الولد: " دي حالتها متأخرة ولازم تتنقل المستشفي حالاً ". مادت به الدنيا لحظتها، وخرجت النسوة عن صمتهن وبدأت الوشوشة.

ويوم والثاني، ولم ير أمه بعدها ..

-جلال، واد يا جلال!

التفت إلى خالته.

- إنت دماغك بيودي ويجيب في إيه؟!

وضغطت براحتها على كتفه:

- مالك! مالك يا وله! طب إصحى لنفسك بقى أحسن بسلامته أبوك بيبص علينا.

***

نهض أبوه من فوق مقعد من الجريد، أمسك بأطراف ملفعته وأحكمها على عنقه ورأسه وظل واقفاً حتى أقبلا عليه.

تنحنح، وقال بصوت خفيض:

- سلامات!

لم ترد عليه. مشت هي والولد خلفه صامتين، ولما دلفوا من الباب أسرعت إليه زوجة أبيه، فتشبث بيد خالته.

فربتت الخالة على رأسه قائلة:

- معلهش يا ختي، أصله مستغرب.

- مستغرب! مستغرب من إيه يا حبة عيني! وهو أول مره يشوفني ما احنا طول عمرنا جيران!

فرمقتها بنصف عين، ثم زفرت وجلست. وسعل أبوه سعلة خفيفة، وجلس هو الآخر. ولبد هو بجوار خالته، وضع صرة هدومه في حجره ومال ببصره نحو الأرض.

مضت برهة دون أن يفتح فمه بكلمة، وخالته كانت ساكتة لا تتكلم إلا بالحساب. أبوه هو الذي كان يتكلم ويضحك، تمطى بعدها مرات كثيرة ثم سكت.

رفع رأسه، فالتقت عيناه بزوجة أبيه. أرخى رموشه وتشـاغل

بالنظر في الخطوط والرسوم التي على السجادة، وعندما أحس بأنها استدارت بعيداً عنه تسحب بعينيه إليها.

دوائر من الترتر تحيط بفتحة صدرها، ونمش يملأ وجهها وأصباغ. لم يعد لها ضفائر. شعرها كله كان ملفوفاً وغائباً تحت تربيعتها الصفراء، وحلقها الذهبي يهتز كلما تلفتت أو تكلمت. لمحته بطرف عينها، فسقط ببصره على موقد الشاي ..

كان بجوار قدميها، لا تفصله سوى بوصة أو بوصتين عن ذيل جلبابها الأحمر، طفق ينظر إلى الموقد وينصـت إلى الوش المنبـعث منه، وانساب إليه صوت أمه وكأنها توشوشه.

خيل إليه أنها تجلس معهم .. بجواره .. في الفراغ النحيل الذي يفصله عن خالته .. تلامسه .. تراه ويراها .. يمرر أصابعه على جلبابها القطيفة .. يعبث بأطراف طرحتها السوداء .. تنحسر قليلاً عن رأسها .. تعيدها .. تنحسر مرة ثانية .. تعيدها وهي تبتسم .. عيناها تضحكان .. وأنفاسها تغمر وجهه كله مختلطة برائحة قدح الشاي الذي في يده.

أخذت يده في يدها، همست له بكلام كثير ..

كان صوتها خافتاً .. واهناً .. يموج في رأسه مختلطاً بوش الموقد. تتكلم وتتوقف .. تأخذ أنفاسها ثم تعود وتتكلم .. كلام أشبه بالهسيس .. وقلبه يسمع .. وينبض .. ثم يخفق ..

عقد جبينه، أصاخ سمعه أكثر وأكثر وعيناه ثابتتان على غطاء البراد وهو يتقلقل على الموقد، وبخار يلوح أمامه .. يعلو ويتلـوى

..

ثم يختفي.

انتبه لما انحنت زوجة أبيه على الموقد، وأزاحته بعيداً عن طرف جلبابها، وفي انحنائها رمق سوار أمه الذهبي يتدحرج على ساعدها، تدحرج مرة بعد مرة إلى أن علق بمعصمها.

والتفت إليه أبوه، سأله أن يكمل قدح الشاي الذي بيده، فقال وعيناه لاتزالان على السوار:

- مليش نفس .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

شيء حدث

obeikandl.com

obeikandl.com

خايله النوم أول ما جلس على مقعد الفصل ..

تراخت أهدابه وشيئاً فشيئاً خبت نظراته، أصبح في واد وصياح الأولاد من حوله في واد.

لاح له عن بعد رجل يمتطي فرسة خشبية، تحسس الطريق إليه من الوراء متخفياً بأفرع الشجر، وعندما اقترب أحس برجفة لما رآه ينتعل مداس أمه، وبدهشة لما وجده يربت على عنق الفرسة ويكلمها بكلام طيب.

الصوت ليس غريباً عنه، والفرسة آذانها من خشب لا يسمع، وشيء يقول له في الحُلمِ: إحذر! فالرجل يراك دون أن تشعر، وإن كنت مستوراً لا يدل عليك شيء أو قلامة من ظفرك تظهر!

ولما طال به الحال أو هكذا حسِب تزحزح بوصة من مكمنه وأمد رأسه، فباغتـــه الرجل بلفتة وعرفه، ولم يكتف أشـــاح نحوه

بعصا وصاح فيه بأن يرحل من هنا!

كان وجهه ملثماً بملفعة غير أن عينيه دلتا عليه، وكاد هو الآخر أن يعرفه. الذي أثار حيرته بعد أن خرج من الحُلمِ، هو صوت الرجل! فليس الصوت صوته، بل صوت رجل آخر .. رجل يعرفه مثلما يعرف كف يده!!

ولم يكمل ..

شد بصره ولدان بالصف الأمامي ينظران نحوه، أحدهما يميل على الآخر ويتفل في أذنه. الولد الذي يسمع يخفي فمه براحة يده ويضحك، والثاني عن الكلام لا يتوقف .. الكلام كله عليه، والضحك أيضاً عليه. يعرفهما ويمقتهما هما وأبويهما، ابن (التابعي) تاجر الجمال وابن (الزناتي) الذي له في زمام البلدة عشرة فدادين.

* * *

وعندما دق جرس الانصراف مد يده إلى كتب الصف الثالث الابتدائي التي تسلمها في الحصة الأخيرة، طواها ودسها بحقيبته. الحقيبة .. الحقيبة ..

كانت مشكلة، ولم ينقطع عنها الكلام ثلاثة أيام بينه وبين أمه! ظن أنها سوف تحسم الأمر ببيع الحلة أو الطبلية أو حتى بالسلف وتشتري له حقيبة جديدة، غير أنها لم تفعل، أما أبوه فأذن من طين وأذن من عجين.

دارت على البيوت، وفي كل مرة تأتي بيدها فارغة إلى أن

فاجأته ليلة الأمس بهذه الحقيبة. رآها كئيبة .. سخيفة .. بطنها كبير .. وليس لها يد تمسك منها، أو جيب إلا وفاغراً فاه وكلما أغلق غطاءه ارتد واقفاً.

يعرفها، وكل الناس تعرفها ..

حقيبة عم (علي) الصراف، حقيبته القديمة التي طالما وضعها تحت إبطه ودار بها في البلدة، وطالما امتلأ جوفها بورق وحجج أطيان وكشوف ضريبة.

عندما دفعها بيده رافضاً زام أبوه في وجهه، وفي الصباح أمسك له العصا فحملها وخرج، ومن أول ما دلف من عتبة الباب والكل يحدق فيها، حتى الدواب والدجاج وكلاب السكك.

أول من فضحه على باب المدرسة هو ابن الزناتي .. أشار لولد فالثاني والثالث، وكانت زفة هو في المقدمة والعيال من ورائه! المؤدب منهم يهمس أو يضحك في عبه، وقليل الحياء يُسمعه ما يكره أو يشده منها ويجري. وها هو الجبان ابن الجبان يمسك بأذن ابن التابعي ويعاود الكلام عنها، ولعله يقول له أيضاً: إن أمه تخدم في بيتهم، تمسح وتكنس وتطبخ وتنظف من يتبول من أخوته الصغار أو يتغوط ..

ولماذا يقول؟!

الكل يعرف أنها خادمة الزناتي، ومن في البلدة؟ إنس أو جن أو حتى من صنف الحيوان، لا يعرف أن أبـــاه كـــــلاف في بيت التابعي. لعنة الله على الزناتـــــي والتابعي في يوم واحد، وعلى أمه

وأبيه وكل البشر ..

لماذا لم أولد ابناً للعمدة أو لشيخ البلد أو حتى لشيخ الخفر؟!

لماذا ليس لأمي قميص من الملس أو طرحة من الحرير أو على جيدها قطعة ذهب؟!

وليس لأبي عباءة أو جلباب من الكشمير أو طاقية من الوبر؟

أو لا أستحق أنا الآخر ساعة في يدي، وجورب وحذاء، وقروش أشتري بها من الدكان !!

* * *

خرج الأولاد من المدرسة وهو في إثـرهم، ولما أحس بأنه صار بعيداً انحـرف ناحية الترعة، وألقـى بالـحقيبة على الأرض ثم ركلهـا بقدمـه. لم تتزحزح. حملها بكلتا يديه ورماها بعيداً حتى توارت بين أعـواد الغـاب. استرح لما فعل ذلك، ثم جلس على حرف الترعة ومدد قدميه.

مضت ليلة الأمس بطولها وهو يقظ، لم ينم سوى ساعة أو ساعتين، أبوه ظل جالساً أمام البيت هو وأصحابه حتى منتصـف الليل وربما لقرب الفجر، يحرقون المعسل ويتمازحون بكلمات فاحشة، وأمه ـ داخل البيت ـ جالسة على الأرض ساهمة لا تتكلم.

غسل أكواب الشاي عشرين مرة، وعندما تأخر في تنظيـف (الجوزة) بصق عليه أبوه فانزوى في ركن بعيد ثم تسلل إلى أمه. ألقى برأسه على فخذها. ملأت الفرحة عينيـه عندما تبسمـت له وملست بكفهـا على جبينه. تحسس برأسه جدار بطنهـا وأغمض

عينيه .. تمنى لو رجع ثانية إلى أحشائها ..

أحس بشيء من الخدر وكاد أن يغفو، لولا قطار من النمل كان يسير إلى جواره، لمحته عيناه فانتبه، أمسك بقشة معترضاً طريقه، ظل يعابث النمل إلى أن تفرق وسقطت ذرات الطعام التي كان يحملها، علقت نملة بكف يده فنكتها ثم سحقها بإصبعه.

انتابه الملل والحيرة في الذي يفعله من الآن حتى أذان المغرب، فباب البيت مغلق بالمفتاح، وأمه لن ترجع إلا بعد غياب الشمس.

تخرج هي وأبوه أول الصباح، هو إلى بيت التابعي وهي إلى بيت الزناتي، ويتركانه على باب البيت هو وأخته نادية، وأول ما يحين ميعاد المدرسة يحملها على صدره ويسلمهما إلى جارتهم (مبروكة) حتى تعود أمه.

لمح صرصاراً يهم بالصعود على أطراف مريلته، فأسرع إليه بأصابعه. قلبه على ظهره، ظل يحدق في أرجله الرفيعة وهي تتلوى ثم أعاده إلى هيئته الأولى. قلبه على ظهره مرة ثانية. ظل يعيده ويقلبه، إلى أن طافت نادية بخاطره فتركه يفلت بعمره.

آه لو كانت معه الآن !! لجعلها تمتطي ظهره وزحف بها على يديه وقدميه، أو يختبيء منها بين أعواد الغاب لتبحث عنه، وما أن يبدو الخوف على وجهها حتى يخرج ويقفز عالياً، يظل يقفز وهي تضحك، يقفز ويقفز ويصيح حتى تقع على الأرض من كثرة الضحك. وخزة ألمت به، عندما تذكر ما حدث لسنتيها الأماميتين.

ضربها ابن الزناتي بطوبة فسال الدم على وجهها، انخلعت واحدة وانكسرت الثانية.

ألقت أمه بوعاء كان في يدها ، وحملتها عائدة إلى البيت.

صمم على التربص بالولد ..

أبوه هو الذي سحق الفكرة من رأسه، وعندما جادله بصق في وجهه. ظل يرمق أباه حانقاً وأمه تشكو له من الزناتي وأولاده، كانت تتكلم وهو ينظر إليها مستخفاً وشب الحريق لما قالت: " أنا خلاص زهقت من الخدمة في البيوت، ملعون الزناتي وولاده أنا مش رايحه بيته تاني ".

شاط الطبلية ساعتها بكل عزمه وركـــلها في بطنهـــا، وظل يصيح ويشتم فيها، لم يتوقف إلا لما جاء أصحابه. لم يذق طعم العشاء في هذه الليلة، لا هو ولا أمه.

قرصه الجوع فقام إلى الحقيبة، وجد رغيفين من الخبز، أكل واحداً وترك الآخر مُلقىً على الأرض.

كثيراً ما يرى الدمع في عين أمه، من يومين وفي سواد الليل أحس بها وهي تبكي، ولما اقترب منها توقفت ووضعت يدها على جبينها، اقترب منها أكثر وكاد أن يهزها بيده لولا نحنحة أبيه، سمعها فانقطعت أنفاسه، لكن عينيه بقيتا مفتوحتين إلى أن شقشق النهار. قبل أن ينام أحس بهمس يدور بينهما، التقط من كلمات أمه شيئاً عن الزناتي، وعن ابنه الكبير البالـغ. كـــاد قلبه أن يتوقف لما رأى أباه يدفع أمه بيده، ويصيح فيها قائلاً: " نامـــي واتخمـدي يا

جاموسة، دول ناس أكابر ومحترمين ".

كان همساً كالذي دار من قبل بين أمه وخالته مبروكة، قام مخضوضاً من النوم ساعتها على صينية الشاي التي سقطت على الأرض، وعلى رعشة اللمبة الجاز رأى خالته مبروكة. كانت واقفة وانحنت تجمع الأكواب المبعثرة. سمعها تدعو على أبيه وعلى زوجها الجالس معه بأن يقصف الله عمريهما، وسمع أمه تقول: "أمرنا لله يا مبروكة لولاشي العيلين اللي بربيهم كنت هجيت من هنا ولا دلقت على نفسي صفيحة جاز وولعت في روحي".

رفع رأسة نحوها. كانت تهم بالقيام من جلستها. تابعها بعينيه وهي تحمل نادية وتضعها إلى جواره. اقترب وجهها من وجهه. لمس عقد الكهرمان المتدلي على صدرها. هم بجذبها من طرف جلبابها، لكنها كانت قد استدارت وجلست بجانب خالته مبروكة.

زفرت قائلة: " الزناتي ده راجل تندب في عينه رصاصة، امبارح يدخل ورايا أوضة الخزين ويقرصني بصوابعه اللي عايزه قطعها! "، وسمع خالته مبروكة تقول: "مقلتيش للعجل جوزك ليه". وتهامسا بكلام آخر لم يفهمه ..

* * *

هبت نسمة طرية داعبته حتى تسلل النوم إلى أجفانه، فألقى بنفسه بين أعواد الغاب وعندما استيقظ رأى أشعة الشمس مائلة على صفحة الماء. أطال النظر فيها. كانت قادمة من فوق شواشي الذرة التي في الغيط المقابل، وتنكسر بلمعة تزداد في المواضع

التي يجري فيها تيار الماء عن غيرها. اقتلع عوداً من الغاب ونزل إلى حرف الماء. أمد العود بأقصى عزمه ليلمسها. كانت أبعد. أعاد المحاولة مرة بعد مرة دون جدوى، ولما انكفأ على وجهه وكاد أن يسقط في الماء ألقى بالعود.

قلب بكفه في بضعة أحجار ملقاة إلى جواره، انتقى واحداً منها وألقاه على سطح الماء، فانسابت الدوائر الواحدة تلو الأخرى. انتقى حجراً ثانياً وألقى به، وثالثاً، ورابعاً .. الدوائر تتسع وتزيد، والزهو يتسلل إليه. عاد وأمسك بحجر ثقيل. رماه بكل عزمه في الماء. أحدث دوامة ودوياً عالياً. أتبع الحجر بآخر أكبر وأثقل. الدوامة أعمق، ودوي الصوت أعلى وأعلى.

جرت الدماء في عروقه ..

نقر خاطر في رأسه بأن يصطاد سمكة كبيرة بكفه وأظافره، فمن غيره يقدر على ذلك؟!

ابن الزناتي أم ابن التابعي!

السمك الصغير بل حتى أبو ذنيبة يعرف صنارتيهما! ينتظرهما بشوق ويلتقط (الطُعم) منهما في ثانية واحدة وهما لا يدريان! أما هو فالكل يعمل له ألف حساب!

حط غراب على فرع شجرة كافور بالقرب منه. لم يدعه. قام إليه وقذفه بحجر فطار وحط على شجرة ثانية. طارده بالأحجار من شجرة إلى أخرى، حتى ترك له المكان كله وحلق إلى حيث كان يجلس.

لو كان عنده صنارة لملأ بها جوالاً من السمك وباعه في البندر! المشوار بعيد والحمل ثقيل. إذن يشترى حماراً صغيراً يذهب به، لن يضربه أبداً مثلما يضرب ابن الزناتي حمار أبيه بالخيزرانة، ولن ينسى نادية. في كل مرة يذهب فيها إلى البندر يشتري لها لعبة، باقي النقود يعطيها لأمه.

أبوه هو السبب ..

شده من أذنه حتى كاد يملصها بأصابعه، لما طلب منه عشرة قروش يشتري بها صنارة، وقال له هازئاً: " آهو ده اللي ناقص، تطلع تصطاد سمك في العصاري زي ولاد الأكابر ".

استرجع صوت أبيه مرة ثانية، وثالثة .. هو الصوت الذي جاءه في الحُلمِ! هو بالفعل!!

لكن من هذا الذي كان يمتطي الفرسة الخشبية؟!

وعندها لاح في خاطره الزناتي بملفعته وعينيه الحولاوين!

هو الزناتي! هو ورب الكعبة! آه يا كلب يا ابن الكلب!!

* * *

عاوده الخاطر مرة ثانية ..

جمع أطراف مريلته ووضعها في سروالـــه، نزل إلى الترعة بقدميه، ثم بساقيه إلى أن زاف نحوه الماء وغمره حتى منتصف فخذه.

انثنى بكل جسده وأمسك شيئاً، فتح كفـــه فلم يجد إلا حفنــة من الطين فرماها بحنق، وفي غمرة إصراره فات عليه أن الماء يمكـر

به.

أحس بسمكة تفلت بين قدميه فانثنى عليها دفعة واحدة، أمسكت قبضة يده اليمنى بذيلها واحتضنها بكفه الآخر، لكن قدمه انزلقت في منحدر وغمره الماء حتى أطراف عنقه. انشغل بنفسه ثانية أو ثانيتين، طارت فيهما السمكة من يديه، ورغم ما أحس به من خطر إلا أنه ظل واقفاً لم يتقهقر.

انساق أكثر وأكثر مع الماء، وملمس السمكة التي طارت منه يذيب عقله إلى أن سقط في منحدر آخر.

منحدر أخبث وأعمق ..

حاول الصعود. لم يقدر. صرخ بأعلى صوته، فجفل فرخ طير كان قابعاً على سطح الماء. رفَّ بجناحيه وطار. حط بعيداً عنه.

وكأن نادية تخطو على سطح الماء .. ويوم أن صاح فيه أبوه دون سبب وظل يدفعه بيده حتى انكفأ .. والمدرس الذي نزل على أصابعه بسن المسطرة .. والزناتي .. وابن الزناتي .. وشوكة من أشواك القاع غرزت بمشط قدمه عندما غطس .. والماء اللين الخبيث يطويه ويقلبه .. وأمه على حرف الماء تحدق فيه حتى هلك وحال الماء بينه وبين ما يرى ..

جرو صغير كان يبول بين أعواد الغاب رآه فعوى، عوى عواءً مؤلماً ثم انكفأ يتشمم رغيف الخبز الآخر الملقى بجوار الحقيبة.

أخرجوه بعدها بثلاثة أيام ..

كانت جثته طافية على سطح الماء بعد أن احتجزتهـــا بوابـــة الهويس هي وجيفة كلب ميت، المريلة حلت أزرارها العلوية وعشب من عشب ورد النيل يغمره.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

لقمة العيش

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يكن بيتنا شيئاً يذكر ..

مجرد غرفتين من الطوب النيء، ووسعاية يحوطها سياج من الغاب المضفور، بأحد أركانها فرن لم يكتمل بناؤه ورحاية عاطلة عن العمل، وأخنان خوت من سكانها بعدما أغارت علينا أثناء الليل ثلة من الكلاب أو ربما الثعالب وفروا بالأرانب إلى جحورهم.

غافلون الملاعين ..

حتى القفص الجريد المغلق على الفراريج مزقوه بأنيابهم، ولم يعد لنا من حطام الدنيا بعدها سوى عنزتين تلهوان طول النهار في الخلاء، وعندما يحل الليل تسوقهما أمي أمامها ليبيتا معنا.

وكانت تترامى من خلفنا مساحات من الأرض البور وبقع بأكملها من الحشائش الميتة، وأشجار تعد على الإصبع بعضها فارق الحياة وبعضها ينتظر، وهياكل عظمية لمخلوقات أتاها أمر

الله وهي في هذا المكان، ناهيك عن النفايات التي يرميها أهل العمار في الصحراء، أكواز صفيح، جرادل صدئة مليئة بالأخرام، فنطاس ماء بلى ولم يعد يصلح للاستخدام. وكنا كلنا ـ حتى العنزتين ـ أغرابا أتينا من جوف الصعيد، بعدما عزت علينا لقمة العيش هناك.

* * *

لم يكن في وسعنا أو حتى ورد على خاطر أبي الاستعانة ببنائين لتشييد البيت، وإنما قام هو بكل شيء وورائه أمي بجردل الماء وقوالب الطوب. وكنت أنا وقتها ابن أشهر وملفوفاً على مقربة منهما في خرقة من الدمور، وأسعل كلما هبت على وجهي ذرات التراب المتطايرة من معـــول أبي أو رذاذ الماء والذي غالـــبـــاً ما يكون مغمـــوساً بالطين.

كانت تصدر عن أبي هو الآخر سعلات متقطعة من علة بالصدر أصابته وهو صغير، فيرتخي كفه على المعول الذي في يده ويعلو برأسه قليلاً تاركاً رئتيه تعملان بأقصى طاقتهما لاستدراج أكبر قدر من الهواء.

تشعر به أمي ..

تشير له بأن يتـــرك ما في يده وينـــــزل من فوق البناء، لا يطاوعها متعللا بضيق الوقت، وعندما يزداد إلحاحها يشيح لها بذراعه في الهواء متبرماً فتبتعد، إلا أنه عندما تعلو وجهه الصفرة أو يزداد نهجانه كانت تصعد إليه مسرعة وتأخذه من يده.

يذعن لها ..

تكسره وعكة الصدر فيترك نفسه لها كالولد الصغير، لتهبط به على مهل وخطوة وراء خطوة حتى يصل إلى الأرض، وعلى أقرب كومة من عيدان التيل الجافة تريح له بدنه واضعة شيئاً مرتفعاً أسفل رأسه، لعل أنفاسه تهدأ أو لربما يدخل في غفوة وينام. وكان هذا الذي يحدث، يمكث برهة قليلة محدقاً في الفراغ ثم ما يلبث أن يغمض عينيه وصدره يعلـــو ويهبـــط، ولم تكن الحشـــرجة تفارقـــه إلا بعد وقت طويل.

استوطنا أخيراً هذا المكان الذي قتلته شحة الماء ..

فعلى امتداد البصر لم أكن أرى إلا تشققات في الأرض تخرج منها السحالي والهوام، وفجوات طالما خوفتني أمي من الاقتراب منها قائلة: بأنها مساكن للجن والعفاريت! وعندما تزأر الريح كانت تهمس لي قائلة: بأنها خرجت الآن وهذا هو صوتها الذي تنادي به على أبنائها من العفاريت الصغار الذين يعبثون في الآفاق!

أما الأرض الحلوة فعلى الجانب الآخر، يفصلنا عنها طريق من الأسفلت تجوب فيه المركبات، فبعده وبمرمى حجر تقريباً كانت أحواض الزرع تمتد لمسافات ومن بعدها تبدأ أول بقعة في العمار. بلدة تبدوعظيمة قياساً على قرانا المرمية على سفوح الجبال بالجنوب، بلدة كأنها (بندر) بها شوارع ودكاكين ومكتب بريد وبيوتها من طابق وطابقين ومدهونة بالطلاء.

***

لم تكن لأبي حرفة غير صنع الحبال ..

يمضي النهار بطوله وهو قابع في الوسعاية التي أمام الباب، ساقه اليمنى ممدودة أمامه وقد انحسر عنها السروال، وإلى جواره أكوام من خيوط التيل، والعنزتان تتسكعان تلقمان ورقة جافة أو عود حطب ميت، وقد يركبهما الشيطان فجأة وتبدآن في النَطاح بلا سبب وجيه.

أقترب منه زاحفاً على أربع وأجلس قبالته فلا يلتفت لي، يستفزني الشعر الكثيف الذي يكسو ساقه المفرودة فأمد يدي متحسساً إياه. ينتبه ويخشى أن يؤذيني الحبل لو أفلت من يده فيهشني بكفه كي ابتعد، وفي انشغاله بي تخطئ يداه في توليف عقد الحبل، فيضرب على ساقه متأففاً مني. تبدو لي ساعتها عجفاء قاتمة لا سمانة لها أو حتى فيها فتفوتة عضل، تكون أشبه بساق لخيال مآتة من ساق لبشر.

وأهرب أنا مبتعداً، وعندما أشعر بأني في الأمان أستدير نحوه، أمكث في مكاني متتبعاً حركة إصبع قدمه الكبير القابض على طرف الحبل من ناحية، وأصابع يده الممسكة بخيوط التيل من الناحية الأخرى وتولف بينها بحركات سريعة متداخلة. ولم تكن عيناي تغفلان عن رأسه، الذي يروح ويجيء إلى الأمام مع كل حركة من حركات يده.

وعندما كبرت أصبح يأمن لاقترابي، ولم أكف أنا يوماً عن محاكاته، أقوم وأبحث عن الخيوط التي تلفت في يده وتناثرت في

الجوار، وأتسحب بحرص على أطراف أصابعي نحو الجدار، ثم ارتخي بظهري عليه ماداً قدمي إلى الأمام ومثنياً الأخرى وأفعل مثلما يفعل. يوقف حركة يده ويطل عليَّ، فيعتريني الارتباك وأهم بالنهوض، يشير لي أن أبقى دون أن تعلو وجهة ابتسامة أو تعبير عن الرضا بما أفعل. يظل وجهه ساكناً، عيناه فقط هما اللتان كانتا ترمقانني بمسحة حنو حزينة.

وعندما يفرغ كان ينهض من جلسته ويمشي على مهل، ويداه من خلفه تسندان ظهره المتعب من طول القعود. يأتي بجردل ماء، ويرش الحبال حتى تحتفظ بطراوتها. يظل على هذا برهة طويلة، ثم يتمطى بصدره وذراعيه ويتنقل بخطاه في الخلاء الفسيح، شفتاه مضمومتان في صمت عميق ووجه متجهم وكئيب.

لم يكن يعرف الضحك ..

قهرته الدنيا وهده الترحال، وبضاعته بار سوقها .. الحبل أو الحبلان اللذان يكد فيهما طول النهار، تأخذهما أمي على مشنة على رأسها وتدور بهما في البلدة، ولا أحد يشتري ..

* * *

كنت أغافل أمي وأسير خلفها ..

تقطع الطريق الأسفلت، وأنا أداري نفسي منها. توغل بقدميها بين أحواض الزرع، فأدخل وراءها ولكن بحذر وموسعاً المسافة التي بيننا كي لا تشعر بوقع خطواتي، أو تنتبه إلى خشخشة أوراق الشجر الجافة التي تدوسها أقدامي.

يحدثها قلبها فجأة بأني وراءها فتلتفت وتراني، يبدو الحنق على وجهها وهى تأمرني بالرجوع، لا أبالي وأبدأ في التلكؤ والمناورة. تقتلع عوداً من الأرض وتهددني به، وعندما لا أستجيب لها تقذف بالعود في وجهي أو تميل على حفنة تراب وترميها تجاهي. أدرك أنه لا حيلة لي إزاء تصميمها وأعدو بعيداً عنها، وعندما أصل إلى الطريق الأسفلت أسمعها وهي تصيح من ورائي لأهدئ من خطوتي وأن أصحو لنفسي كي لا تدهمني المركبات.

غالباً ما يكون الطريق خالياً، فأعبره كالريح وأقف في الناحية الأخرى أتابعهـــا وهى تمشي على حواف السكك قاصدة البلدة. هيكلهـــا عريض وخطـــاها فسيحـة ورزينـــة كخطـــى الجمال، ولم تكن يداها تسندان المشنة وإنما تروحان وتجيئان بحركة وئيدة والمشنة ثابتة على رأسها لا تهتز. وإذا كنا في شتاء أمشير أو برمهات، كانت طرحتها السوداء تتطاير على رأسها بفعل الريح، لا تنشغل بها، وإنما بجلبابها الذي تدفعه الريح بقوة بين ساقيها ويعوق حركتها، تظل تشد الجلباب إلى الأمام وهو يعاند ويرتد إليها إلى أن تغيب عن بصري.

تذهب وتعود كل يوم، ولا أحد يقبل على بضاعتها ..

وإذا ألحت يقولون لها: الخيط البلاستك أمتن وأرخص! ناهيك عن الصعاليك الذين كانوا يلمزونها بكلمة من هنا وكلمة من هناك، ومن يشترى فمن باب العطف والإحسان، والدفع ـ بالطبع ـ على المهل، وكل براحته. بيد أنه لم تكن تعدمها الحيلة، كانت تدخل

بيوت الأعيان وتكنس المنادر والدواوير أو تشعل الأفران والكوانين، وتقوم بكل ما تعف عنه النسوة الكسالى، وتأتي لنا في آخر اليوم بأشياء نتقوت بها، خبز فلاحي، جبن قريش، أو حلة طبيخ بائت بداخله قطع من الدهن والشغت، وحبات طماطم وثمار خيار أو فلفل أخضر اقتلعتها خلسة من الزرع الذي على أطراف السكك.

والغريب أن العنزتين كانتا تعرفان ـ مثلنا ـ أن أمي هي التي تعول البيت، ومن بعد العصر ـ وهو أوان رجـــوعها ـ كـــانتا لا تبرحان بقعة مرتفعة بزاوية البيت تهل عليهـــا من بعيد. تتمـــددان على الأرض بلا حراك أو تعبثان بحافريهما في الأرض بملل شديد، وعندما تتنسمان ريح أمي مع الهواء الآتي من البلدة تهرعان إليها قفزاً وكأنهما داخلتان في سباق. تدوران حولها وتعرقلان سيرها، العنزة السوداء خاصة كانت تتجاسر عليها وتنطحها في خاصرتها بمزاح ووحشة، إلى أن تذعن لهما أمي وتهبط إلى الأرض بالمشنة وترمي لهما ما يخصهما، حزمة برسيم، كيزان ذرة، أو كسرة خبز طالها العفن.

* * *

ساءت صحة أبي أول هذا الشتاء ..

ضربه الهواء البارد فحرك المرض القديم، وبات أغلـب اليوم صدره مزموم وتفاجئة السعلات الحادة التي تعقبها أحياناً بصقة مخضبة بالدماء.

كانت أمي تضع عدة أحفان من الردة الدافئة في خرقة وتزم عليها ثم تضعها على صدره عند النوم، وتأتي له أحياناً بأدوية للسعال. زجاجات مسدودة بقصاصة ورق أو زيق من القماش، وثلثها أو نصفها مملوء تأخذها من البيوت التي تدخلها. تسحب الزجاجة من المشنة التي على رأسها وتسلمها له، يمرر لسانه على فوهة الزجاجة ثم يرفع عينيه إليها قائلا: إنها أكثر مرارة من الزجاجة التي أتت بها في المرة السابقة!

تقول له: إن الدواء كلما كان مراً كان أسرع في الشفاء!

يهز رأسه مصدقاً، ويضع الزجاجة في كيس صغير من القماش إلى جوار أخواتها. وعندما دخلنا في شهر طوبة، حرمت عليه الخروج من الباب ..

لازم الفراش طيلة اليوم، إلا ساعات الصباح التي كنا نقضيها معاً في بحراية الباب، متدثرين بأشعة الشمس من موجات الرطوبة التي لا تبارح المكان.

* * *

رحم الله أمي، فقد كانت عمود البيت ..

كل شيء كان معقوداً في رقبتها، الأكل والشرب والكنس بل والأمر والنهي أيضاً، وأنا وأبي قابعان في البيت لا حول لنا ولا قوة.

كانت تنهض مبكرة وأول شيء تفعله لنا هو كنس بحراية الباب، ثم تضع فرشة أبي عليها. حصيرة أنهكها الزمن، وشلتة ذبل

حشوها من طول القعاد، وعندما شكا لها أبي من يديه اللتين تؤلمانه كلما وضع رأسه عليها ونام، أتت له من أحد البيوت بمسند خرج الحشو من مزق بجانبه وحرام ليغطي به ساقيه.

عادة ما تكون هذه المستلزمات ملقاة بأي ركن في الوسعاية أو فوق الأخنان إلا الحرام، فهو من أشيائنا الثمينة التي لا يجب أن تبيت في العراء. تطبقه أمي أربع طبقات، وتضعه بعناية في صحن الدار على عرقي خشب صغيرين شُدا إلى بعضهما بالحبال.

تتأكد أمي من أن هذه الأشياء أخذت حاجتها من الشمس والهواء، ثم تحملها على كتفها وأنا واقف في الانتظار، تلقي بها دفعة واحدة في البحراية، فيثور الغبار وتطالني رائحته والتي غالباً ما يفوح منها عطن خفيف. كنت معلولاً بالصدر مثل أبي، فينتابني ضيق النفس على الفور وأبدأ في السعال. تدفعني بعيداً عن مصدر الرائحة، وتسألني: إن كنت بحاجة إلى ماء؟ أهز رأسي رافضاً، لا تكترث بما أقول وتسرع إليَّ بكوز ماء، ثم تأتي بزجاجة دواء وتجبرني على شرب جرعة من فوهتها، وكلما تمنعت تلكمني في ظهري لأستجيب، وأسمع بعدها كلمات التأنيب ملوحة بإصبع السبابة في وجهي كي أعود إلى الفراش.

لم أكن أفعل ..

أظل واقفاً على مسافة منها وهي ترمقني بضجر، وشيئاً فشيئاً تدعني اقترب وألمح شيئاً كالابتسامة على شفتيها عندما انحنى

مقدماً العون. استكمل فرد الحصيرة وأجثم على المسند مزحزحاً إياه نحو الجدار إلى أن ينتابني اللهاث فترفعني بحنق من طوق الجلباب، غير أنها أول ما تسمع حمحمة أبي في الداخل كانت تنشغل عني.

* * *

ويأتي أبي ..

محنياً ضئيلا يخب في سروال طويل من البفتة، يعلوه شرز كاكي من مخلفات الجيش، ومن يراه يقول إنه في السبعين وإن كان بحساب الزمن لم يصل بعد إلى الخمسين.

يتوقف أول ما يراني، يشير لي بالعصا التي يتكئ عليها كي أتقدم نحوه، ويبدأ في الحديث معي في أشياءً تافهة، وأمي إلى جواره متأففة والضجر يملأ وجهها.

معذورة ..

فغالباً ما تكون متعجلة على الخروج، وتود وضعه على الفرشة بأي طريق كي تنطلق إلى لقمة عيشها.

وأطير أنا وآتي بمتعلقاتي، كوز مخروم، زجاجات فارغة، حفنة أزرار، حصى بأحجام مختلفة، ومسخوط كنت قد عثرت عليه مُلْقى في العراء. ويكون هو قد جلس مسترخياً بظهره إلى المسند وقدماه ممدودتان أمامه، أقبل عليه حاملا أشيائي في حجري، وأقعى قبالته على طرف الفرشة بادئاً في اللعب.

* * *

ينشط أبى دائماً أول الصباح، ولا يتوقف أبداً عن الكلام ..

يلعن الغربة وأيامها، ويحكي لي عن بلدتنا البعيدة التي تركها وأنا ما أزال محمولاً في بطن أمي. بلدة في حضن الجبل دورها أشبه بالجحور، تعيث فيها الرطوبة والعتامة ورجالهـــا سمر نحيلو السيقان والسواعد ويتململون من ندرة الزاد.

يقول: إنه مضت عليه اثنتا عشرة سنة وهو بعيد عنهم! كلب شارد لا يعرف من عاش من أهله ومن مات! وباليته حتى يملك ثمن تذكرة السفر! لكان رجع ولو سف التراب هناك.

يسألني فجأة عن الرئيس جمال عبد الناصر؟!

أقول: لا أعرفه، فأنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل، لا دخلت مدرسة حتى أعرف منها ولا يسكن جنبنا أولاد أقول لهم ويقولون لي، ويمد هو يده إلى جيب السروال ويخرج من محفظته الخاوية صورة بحجم الكف لمن يقول لي إنه الرئيس!

صورة بالية اهترأت من القدم وكثرة الفرد والتطبيق، يحدق فيها صامتاً وألقي عليها أنا الآخر نظرة خاطفة، ثم أعود إلى الكوز المخروم أرقق فوهته بضغطات من أصابعي متوهماً إياه (ميكروفوناً) أتسلى بالغناء والصياح فيه عندما أخرج للخلاء.

ويأتيني صوت أبي وهو يتكلم مع الرئيس ..

يلقي عليه السلام، يعاتبه لأنه نسيه ولم يعطـــه فـــدانين من الإصلاح الزراعي مثل أولاد عمومته، ويقول له: ابعادية البرنس (يوسف كمال) كانت كبيرة .. يرمح فيها الخيال يومـــا بطـــوله ..

كانت تسعني أنا الآخر يا سيدنا الرئيس! بدلاً من الغربة والبهدلة وكسرة النفس أمام من يسوى ولا يسوى، لعنة الله على الملاعين الذين أحالوا بيني وبينك، ودخت بعدها السبع

دوخات!

ويتوقف فجأة ..

يسمع خشخشة بين ذوائب الجريد المتدلية من سقف البيت، فيرهف السمع وترتخي الصورة بين أصابعه. ويباغتني بوقوفه مرة واحدة وهو يقول بصوت جزع: إنه فأر ويجب أن نحتاط منه، وينغزني بعصاه في كتفي كي نهب معاً لمطاردة الفأر.

أشعر بالحنق، فأبي له في كل يوم حكاية والمسألة تأتي دائماً على رأسي بالوبال ولا أهنأ باللعب.

يشير إلى قالب طوب كي آتي له به، يقف عليه ويرفع عصاه دافساً مقدمتها بين أعواد الجريد ثم يحركها يميناً ويساراً، وعندها تبدو صفحة وجهه جادة وفي أقصى درجات الترقب، وأنا إلى جواره ضجر ساخط ملول فكل أفعال أبي دائماً فاشلة.

أقول له: كفى يا أبي! فالفأر ليس عبيطاً! أتظنه سوف يبقى في انتظارك حتى تصل إليه!

يقول: أنتم هكذا أيها الصغار الجّهال لا صبر لكم على أي شيء!

أتركه وأعود إلى الوراء، اعتلى كومة من الحطب الجاف لأتمكن من رؤية السقف. أبى ـ والله ـ محقاً، وياليته كان فأراً واحداً

وإنما هم بالعشرات! الذي يلهو والذي يتزاوج، والذين ينهشون أحقاف الجريد بأنيابهم وحتماً سوف يوقعون السقف على رؤوسنا. والمشكلة أن المنطقة التي يبحث فيها أبي بعصـــاه كانت خالية منهم، تركها له الأنذال كي يلهو فيها على راحته.

وتأتي أمي لتوقف هذا العبث، وشيئاً فشيئاً يستكين لها فتعود به إلى الفرشة.

لا نجد صورة الرئيس، يبدو أن دفقة ريح غافلتنا وأخذتها معها.

تقول أمي: إنها سوف تأتي له بعشرة مثلها.

ينظر إليها براحة، فتقول: إنها تملأ الجرائد القديمة التي في بيوت الأعيان وهم يرمونها أو يتركونها لها لتنظف بها زجاج الشبابيك. يتعكر مزاجه مما يحدث للجرائد التي تحمل صور الرئيس، تكسو وجهه الجهامة وتسرح عيناه في بقعة قصية يملؤها نبات الصبار.

برهة وتهمد حركته ويكف عني، وأبدأ أنا في اللعب ثانية، لا أنتبه إليه إلا كلما رفع عصاه وخبطها على الأرض بصوت مدوٍ، مهدداً أي كلب أو قطة تفكر في اقتحام المكان علينا.

* * *

يسال أمي عن الصورة في كل مرة ترجع فيها من البلدة؟

تطرق صامتة، وفي مرة ضجرت منه وقالت: ليس بالجرائد سوى صورة الرئيس الجديد، هل أتى لك بواحدة منها؟!

سكت أول الأمر، ثم اختلق بعدها مشاجرة معها وتفوه بكلام أكثره غير مفهوم، فتركته وانصرفت.

كانت هذه عادتها معه، لا تطيل في الكلام وإذا كان مزاجه ليس على ما يرام تبتعد عنه، ولا تأتي له إلا إذا ألح في النداء عليها أو كلمها بكلام مفهوم.

تقول: إن بها ما يكفيها فهي التي تؤكل وتشرب وتعري وجهها طلباً للرزق، ولم تعد لها طاقة للمحايلة والمسامرة. وأبقى أنا معه، برهة وأشعر به وهو يميل على مداسه. أفهم أنه يود مطاردة شيء، وأحتاط لنفسي فهو لا يحسن التصويب.

أتابع مسار عينيه ..

تلوح أمامه جرادة نطاطة تقف على أحد أعواد الغاب، ظلت عيناه عليها حتى طارت من مكانها وأخذت تحوم حول العنزة السوداء، خاف أبي أن تنشب الجرادة ساقها المنشارية في أذن العنزة أو عنقها، فهب مرة واحدة وقذفها بالمداس. كانت اللئيمة قد طارت إلى مكان آخر، وأتى المداس في بطن العنزة وبدأت المسكينة في التوجع ومأمأة كالبكاء.

لا يعبأ بما حدث، يستدير نحوي، يحكي لي وقت أن كان صغيراً في الصعيد ويخرج مع الأولاد واضعين نعالهم تحت آباطهم، وأول ما يلمحون أسراب الجراد يصفقون بها كي لا تحط على الأرض، وكان الكبار يطرقون بالعصي على الصَّفيح.

الكلام معاد ..

سمعته عشرات المرات! أود العودة إلى اللعب، غير أني لا أفعل، تروح عيناى إلى يده. الأصابع قاتمة جافة كعيدان الحطب التي امتص دود الأرض كل ما هو رطب فيها، والعروق سارحةعلى ظهر يده، كثيرة متعرجة يابسة وخضارها تكسوه غماقة داكنة.

ويدخل في غفوة تعقبها دورات شخير مؤذية، فأنادي على أمي كي تأتي وتأخذه إلى الداخل ..

لا تسمع، وإن سمعت فهي لا ترد!

أقوم وأترك له المكان.

* * *

سأل أمي هذا الصباح أن تبقى معه ..

قالت له: عندك الدواء في الكيس وبجوارك قلة الماء، وأنا لن أتأخر، فأطرق، ولا أدرى كيف لم تنتبه أمي إلى الصفرة التي تكسو وجهه، وبقى هو زاهداً في الكلام على غير عادته. خمنت أنه مشغول بشيء وكنت بين الحين والحين التفت إليه فأجده يتململ في جلسته.

سألته: إن كان يريد شيئاً؟

فلم ألق جواباً وبقينا هكذا إلى أن باغتني بسعلات حادة، وشيء كالريالة المخضبة بالدماء تسيل من فمه. انكفأت عليـــه، فأبعدني عن صدره بدفعات واهنة من يده.

كان وجهه في لون الرماد وسقطت التلفيعة التي تطـــوق عنقه

ومنَحْرِه فبدت عظمتا الترقوة من قبة الجلباب، وأحسست للحظة أنه يريد قول شيء إلا أنه لم يفعل. تحول عني بوجهه وهو يلهث، ثم تزحزح بمؤخرته نحو المسند، أرخى رأسه عليه وأسبل عينيه.

سألته: إن كان يريد أن يشرب أو أن آتي له بزجاجة الدواء؟

لم يجب، فدنوت برأسي من وجهه وأعدت السؤال مرة ثانية فأشار لي أن أسكت الآن، وكان النفس الخارج من فمه تفوح منه رائحة حامضة. ولم أكد أعود إلى مكاني حتى هب برأسه فجأة من على المسند، ودخل في نوبة أحد من السابقة. السعال فيها كان صوته غريباً عن كل مرة، وبدا وكأنما يحاول دفع شيء عالق بحنجرته، فمكثت أمامه بلا حراك، كنت مرتبكاً ولا أعرف ما الذي أفعله وانتابني الوجل وأنا أنظر إلى ساقه التي تعرت وتنتفض من شدة السعال.

وعندما هدأ، أو هكذا ظننت، سألني عن أمي؟ ودفعني في ركبتي كي أسرع وأناديها. اندهشت من سؤاله، فهو يعرف أنها تركت الدار من أول الصباح! وسكتُ محدقاً فيه وهو لايزال ينتظر، برهة وتغير وجهه وغمغم بكلام لم أتبينه، ودفعني ثانية دفعات متلاحقة. لم أفهم ما الذي يريده، حسبت أنه غـاضب مني ويريدني أن أبتعد، فوضعت متعلقاتي في حجري وانتقلت بها إلى مكـان غير بعيد، وكنت أرنو إليه ببصري بين دورات اللعب لعله يناديني أو أفهم ما يريد، فأجده ساكناً إلا أنفاسه التي تلهث.

وعندما فرغت وجدت رأسه مستلقية على حافة المسند، ألقـيت

عليه حصاة صغيرة مداعباً إلا أنه لم يعبأ بي، فمددت رأسي قليلاً إلى الأمام لأستجلي خبره مندهشاً من أبي هذا الذي له في كل يوم شيء عجيب! فمرة يتكلم بكلام غير مفهوم! ومرة تدمع عيناه! ومرة يشاكس أمي ويغضب على الطعام! وها هو الآن ينام وعيناه مفتوحتان! وأقول لنفسي: والله يا أبي إنك سوف تصيبني بالجنون مثلما أنهيت على أمي، هل هناك بشر في الدنيا يفعل هذا الذي تفعله: تنام وعيناك مفتوحتان!!

لم أعرف أنه كان ميتا إلا بعد أن أتت أمي ..

صدرت عنها آهه موجعة بعد أن مالت عليه، وجثوت عليه أنا الآخر فدفعتني بيدها كي أبتعد ولا أحدق في وجهه، ولما توانيت نهرتني بوجه غاضب وأمرتني بأن أتركها الآن وأخرج إلى الخلاء.

كانت الريح شديدة في هذا اليوم، وتأتي من جهة الغرب حيث الأرض البور، والجو معبأ بعكارة وغبار وعوالق تسبح ضالة في الهواء، بل وحتى أعواد الحطب الميتة وكرات الشوك والمخلفات، كانت تغلبها ضراوة الريح فتصعد إلى السماء ومنها ما كان يدور حول نفسه في الأعلى عدة دورات.

وعلى مرمـــى البصـر حيث الطريق الأسفلت كان رهط من المركبات السوداء يمضي خطفاً، وفي مقدمته مركبة ترفرف عليها الأعلام من الجانبين، وأناس كبار ببذلات وكرافتات يجلسون فيها وتبدو على وجوههم الراحة ويتسامرون.

* * *

obeikandl.com

آلام صغيرة

obeikandl.com

obeikandl.com

كنت أحسب أن (عاشور النطع) زوج أمي.

لم أعرف أنه ليس زوجها أو حتى يمت لنا بصلة، إلا في أول يوم أذهب فيه إلى الكتاب.

أرضية الكتاب كانت واطئه وبلا أي فرش، حصيرة فقط يتربع عليها الأولاد، وسيدنا أمامهم على شلتة من القطن تكسوها فروة غنم. وعلى مقربة منه طست صغير من النحاس به عدد من القلل،أما مداسات الأولاد فكانت هنا وهناك وأكثرها مقلوب على وجهه.

طفقت واقفاً بهيكلي الصغير أتململ من لوح الأردواز المعلق بدوبارة في عنقي، ومن الطاقية التي لم آلف ارتداءها من قبل، وكنت في مجملي فارغاً عاجزاً عن دفع قدمي ولو بوصة واحدة والنزول إلى ساحة الكتـــاب. كل الذي استطعتـــه هو التطلـــع نحو

سيدنا، وشيئاً فشيئاً تركزت بؤرة عيني على وجهه.

لم يكن مثل الوجوه المألوفة أو قسماته يجمعها أي تناسق، كـــان مثيراً للخوف والفضول في آن. أنفه كبير بشكل لافت ويدعوك إلى الحذر منه، عيناه صغيرتان وغائرتان ويصعب تقفي المسار الذي تتجه نحوه، أما أذنه اليمنى فتبدو وكأنها أكبر بهمسة من الأذن اليسرى.

مكثت أتابعه وهو يمط في التلاوة بصوته الغليظ، وعنقه التي تعلو وتهبط دون توقف، ثم شد بصري فأران يلهوان معاً بين أعواد الغاب التي تظلل سقف الكّتاب. كان حجمهما صغيراً وألمحهما بالكاد وهما يناوران بعضهما وتصدر عنهما خشخشة خفيفة، واندهشت من أنني وحدي الذي انتبهت إليهما، رغم أنهما كانا قريبين من رؤوس الأولاد، ولم يكن لدى أي شك في أنه إن لم يوقف هذان الملعونان الشغب الذي يحدثانه، فلا مفر من أن أحدهما سوف يسقط في حجر سيدنا.

لا أعرف كم من الوقت انقضى عليَّ وأنا على هذا الحال، كل الذي أتذكره أني سمعت جلبة وأصواتاً عالية آتية من بعيد. عرفت على الفور أن مصدرها عمي (عاشور النطع)، وأنه بدأ جولته الصباحية في أزقة البلدة هو وثلة الأوباش الذين يمشون في معيته. خفت أن يراني وأنا على هذا الوضع، فقلت في نفسي: لا مفر إذن من الدخول، فالكتاب أرحم!

هبطت بقدمي ودخـــلت. دنوت من الأولاد ببطء. كانوا كلهـــم

منشغلين بالتلاوة وظهورهم إليَّ. لم يشعروا حتى بوقع خطواتي. انتبهوا فقط لما رفع سيدنا رأسه نحوي. أداروا رؤوسهم إليَّ في نَفَسٍ واحد، فتوقفت في مكاني وتوتر الجو. اكتساهم الوجوم أول الأمر. ظلوا يحدقون فيَّ لحظتين أو ثلاثاً، ثم شاطت فيهم النار. لم يسكتوا إلا لما أشاح سيدنا بعصاه في الهواء. التفت نحوي بعدها، وأشار لي بأن أجلس فتربعت بجوار ولد ضرير وعيناي في الأرض، ومضى وقت دون أن أسمع كلمة واحدة من كلام سيدنا. كنت مشغولاً. أتوقع زغدة في جنبي أو لكمة من أحد، ولم يكف قلبي عن الدق، وبدا لي الكتاب كئيباً وليست فيه نسمة هواء واحدة.

رفعت عيني ونظرت إلى ولد. وجدته ينظر إليَّ هو الآخر. ولد ثان يميل برأسه نحوي. ليس واحداً، بل اثنين، ثلاثة، أربعة، كلهم يحدقون فيَّ، حتى الجالسين ورائي بدأت أشعر بهم، وسيدنا لا يزال مستمراً في التلاوة، لم يكن معنا ولا واحد منا كان معه.

لم أجد حلاً إلا النظر في ظهر الولد الجالس أمامي. شدتني إليه نملة تصعد على جلبابه. كانت صغيرة، أصغر من النمل الذي نراه في البيوت، وتسير في خط مستقيم، من أسفل لأعلى، ثم ما تلبث أن تغيب في ثنايا الجلباب لتظهر بعدها معاودة الصعود. ظلت عينـــاي عليها، إلى أن قرصنـــــي ولد في ساقي فانتفضت. قمت نصف قومة وعدت، دون أن أفتح فمي بكلمة. وعندما هم ولد آخر بشكي بدبوس في يده تزحزحت حتى طرف الحصيرة، وتزحزح الولد الضرير معي. هفا قلبي إليه لما فعل ذلك، ربت على ركبتـــه

فمال برأسه نحوي متبسماً ثم عاود التطلع إلى الأمام.

وفي موعد الغداء فك كل منا صرته. أخرجنا البصل الأخضر والخبز والجبن القريش، وكنت أرمق الضرير متعجباً وهو يمد يده إلى طعامي ويتحسسه، واستغربت من دهشته لما عرف أنه ليس معي حلاوة طحينية وبيض مسلوق أو حتى ثمرة فاكهة أو أي شيء مما يأكله الأغنياء.

* * *

الكتاب وقتها كان كالسوق، أكل وثرثرة ومزاح بالأيدي، أنا والضرير وحدنا اللذان كنا صامتين. أردت أن أسأله عن الحلقة المعدنية المتدلية من حلمة أذنه لكني آثرت السكوت، حتى لا أفقد الصديق الوحيد لي في الكتاب.

قلَّ الضجيج لما عاد سيدنا، هممت ساعتها بالكلام مع الضرير غير أنه سبقني، رفع رأسه ناحية السقف وقال: إن أباه مأذون البلدة، ثم عاد برأسه وسألني: إن كنت أعرفه؟

أجبت بالنفي، فقال: هو في السجن الآن وكل الناس تعرف حكايته.

ونظر برهة إليَّ وعيناه في عينيَّ، ثم مال نحوي وقال بنبرة حادة: أمك تعرف كل شيء، إسألها عندما ترجع إلى البيت.

هبطت ببصري إلى الأرض، وسعلت بلا سبب فسألني: إن كنت مريضاً، قلت له: نعم، وأنا أحدق في عينيه ولا أعرف لماذا ساورني الشك للحظة في أن بصره حديد، وليس أعمى كما يبدو

لي!

وبحركة تلقائية وبلا صوت تزحزحت بمؤخرتي بعيداً عنه، غير أني تراجعت. شيء أكد لي بأن الضرير يراني، وازدادت حيرتي فظللت ساكتاً والضرير ساكت هو الآخر. دام الصمت بيننا إلى أن تحسس ظهري بأطراف أصابعه، فقلت له: هل تزور أباك؟

رد عليَّ بتثاقل، قال: لا.. فالنـاس أخبـرت أمـي أنه مـــات في السجن.

ثم هز رأسه مرتين وبدا وجهه غريباً وهو يقول: أمي صدقت الناس لكني لا أصدقهم وأعرف أن أبي لم يمت وسوف يعود يوماً ويسترد الدفتر الذي سطا عليه عاشور النطع.

قلت: أي دفتر؟!

قال: الدفتر الذي فيه أسماء الشهود على كل زواج صحيح!

فحدقت فيه، وهو يزيد: الشهود! الشهود! الشهود الذين يتقون الله وليس الذين يدخلون على أمك أي نفر!

وتتبعني بعينيه وأنا حائراً جاهلاً غير فاهم، وما أن شرعت في الابتعاد عنه حتى اقترب منا ولد، زغدني في صدري وهو يصيح فيَّ قائلاً: إن مثلي يجب أن يستحي من نفسه، ولا يحق له الإمساك بالمصحف الشريف والقراءة في كتاب الله.

أشار له الضرير بأن يسكت الآن، فالذنب ليس ذنبي!

لم يعبأ الولد بالإشارة، أمسكني من ياقة الجلباب معاوداً الصياح، سمعته يقول: أمك تعيش في الحرام مع عاشور النطع،

وليس من الآن! من زمن وهي تعاشر الرجال في الحرام، والناس كلهم يعرفون ذلك!

فهب الضرير لإيقافه ولما فشل صاح فيه: لا تقل هذا الكلام! لا تعايره هكذا يا مغفل يا جبان! فالهم يطولك مثلما يطوله، فأمه هي أمنا كلنا يا أيها الغشيم!

لا أعرف على وجه التأكيد، ما الذي فعلته وقتها ..

كنت ارتعش من شدة الانفعال، وأصيح وألــعن ويــداي تعلــوان وتهبطان على صدغ الولد ورأسه. ولم يساندني أحد بالطبع، وقفوا كلهم ضدي، عيال تجذبني من الخلف ومنهم من كان يلكمني في ظهري أو يضربني بأي شيء في يده، ولمحت ولداً يأتي من الجانب الأيسر ويهوي بمداسه على رأسي، أحسست لحظتها بأنها انشطرت نصفين، وغامت عيناي على سيــدنا وهو يهرول نحونا ووجهه مخطوف وأشد قتامة من حبة الزيتون.

أفقت بعدها لأجد نفسي ممدداً على الأرض، وأمامي سيدنا وامرأته، وانزوى الأولاد في الأركان، أفواههم مغلقة وينظرون. كانت المرأة تضع رأسي في حجرها وتدعك أنفي ببصلة وسيدنا قل عليه السلام وأظن أنه فعلها على نفسه، ورغم ما كنت فيه شدني وجهه لما رأيته بلا عمامة ورأسه حليقة بالموسى، بدا لي وكأنه وجه رجل آخر.

عادت الروح إلي سيدنا لما رآني أرفع رأسي وتدب فيَّ الحياة، أجلسني بجواره وهو يطيب خاطري، ثم انحنى عليَّ ودنا بوجهه

من وجهي. كان حاجباه غليظين ويعلوان ويهبطان كلما تكلم، ووجهه كبير وخائف وهو يحلفني بالله ثلاث مرات ألا أقول لعمي، وأحاط معصمي براحة يده وقال بصوت خفيض وعيناه غائمتان: أنت لا ترضى بقفل الكتاب وخراب البيوت، فأنا مسكين وسوف يذبحني عمك عاشور لو عرف بأن أحداً مسك بسوء، ارحمني يا ولدي ولا تقل له شيئاً مما حدث.

لم يكلمني أحد على هذا النحو من قبل، فاحترت في الذي أقوله أو أفعله. لبثت برهة واجما، ثم أومأت برأسي مؤكداً على ما يطلب ولم تكف عيناي عن النظر إلى الأولاد. كانوا كلهم في مواجهتي، الخوف في وجوههم ومنهم من كان يبكي، كنت خائفاً أنا الآخر، وانتابتني نوبة بكـــاء حـــادة، لم أسكت إلا لما رأيت سيدنا يمسك بالولد الذي ضربني بالمداس وينزل على ظهره بالعصا. وبدأت أحدق فيما يجري حولي، رأسي كانت فارغة إلا من غضب مكتوم ولعنات أصبها في سري على عمي عاشور، ولما أتت أمي على بالي هممت بالبكاء مرة ثانية.

* * *

لم أجرو على البوح بكلمة واحدة لأمي ..

أعود كل يوم من الكتاب، فأجدها جالسة على عتبة الباب، أسند ظهري إلى الجدار وأبدأ في اللعب بأي شئ في يدي. ترنو إليَّ بعينيها بين الحين والحين، وأبادلها النظر أنا الآخر وقلبي يلوك في كلام لا يقال.

وفي يوم عدت مبكراً، لأجد عصا (النطع) معلقة على المسمار وأمي جالسة في الحوش، وإلى جوارها دجاجة مذبوحة وأمامها صينية من النحاس على سطحها كومة من الأرز. خلعت مداسي، وأول ما جلست قالت لي: إقفل فمك فعمك نائم، لم أرد عليها، تحولت بنظري إلى الدجاجة. كانت مذبوحة لتوها ورجلها اليمنى تنتفض بحركة تشنجية، وعلى مقربة منا دجاجتان كفتا عن النبش بالتراب، وقبعتا تحملقان في وجوم.

أشرت إلى الدجاجة المذبوحة وقلت لأمي: إن الروح ما تزال فيهـا. لم تـجب. كانت منـهمكة في نقاوة الأرز، وأصابعها تروح وتجيء عليه بسرعة عجيبة، وبدا لي وجههـا ممصو صاً وأنفها كأنما ازداد طولا. لم أسمع في حياتي شخيراً كشخير هذا (النطع)، كان عالياً ويأتي إلينا حتى منتصف الحوش، وإذا توقف تلتفت أمي وراءها بحركة لا إرادية ثم تعود للأرز، كنت التفت مع التفاتتها، وأرى نبوته الطويل بارزاً من حافة الشباك.

ولد في الكتاب قال: إنه كثير الشجار هذه الأيام، تعارك مع عائلة السني ثلاث مرات، وبصق في وجه كبيرهم أمام الناس. سيدنا كان جالساً وراء هذا الولد وهو لا يدري. سابت مفاصله لما سمع الكلام، ونزل بالكفوف على قفا الولد، وحلف عليه إن هو كررها لن يدخل من عتبة الكتاب مرة ثانية. كنت أتابع ما يحدث دون أن أفهم سبباً لغضب سيدنا، فالأولاد طول النهار يتكلمون في حق هذا وذاك وسيدنا يسمع ولا يُعقب بل وأحياناً يشارك ليعرف

المزيد. وعندما هممنا بالانصراف همس سيدنا في أذني قائلاً: أبلغ عمك عاشور بما فعلته اليوم مع هذا الولد المجرم فأنا لا أسمح بالبذاءات وقلة الأدب في الكتاب، كتابي محترم ولا يلوك فيه أحدُ بما يغضب أولي الأمر.

* * *

أمي مشغولة وحبات عرق تتكاثر على جبينها، وتروح وتجيء كلما هزت رأسها. شغلها الأرز عن كل شيء، لم تنتبه حتى إلى كم جلبابي الممزق، أو إلى الكدمة التي تعلو حاجبي الأيسر، أنا الآخر لم أقل لها شيئاً، وكنت أخفي كم الجلباب كلما نظرت إليَّ. ملاعين هؤلاء الأولاد، كل يوم قلة أدب وإهانات وعراك!

وعمي (النطع) نوم وأكل وشرب شاي، ثم يأخذ نبوته ويدور في البلدة!

أزاحت أمي صينية الأرز فجأة، وفجأة أنا الآخر انطلقت شرارة نار في صدري. كدت انفتح في الكلام، هممت مرتين غير أنى لم أقدر. جف حلقي مرة واحدة، وحككت جبهتى بظفري محدقا فيها ..

أشارت بعدها إلى صفيحة فارغة بجوارها، طلبت مني أن أملأها بالماء حتى تنظف الدجاجة إلا أني لم أحفل أو تزحزحت بوصة واحدة من مكاني. نظرت إليَّ ثانية وجفناها يختلجان، ولما همت بالكلام علقت حبة عرق برموشها، انشغلت بها عني لحظات

ثم صاحت بضيق وهي تدعك عينيها: أسرع .. أسرع! فعمك جائع. تظاهرت بأني لم أسمع، وانحنيت على مداسي أفرك الطين الجاف العالق به، وتبسمت متذكراً الضرير. تعاركنا أنا وهو مع ولد بعد أن خرجنا من الكتاب، طاشت يد الضرير ولكمني في وجهي مرتين بدلاً من الولد، فضحكنا نحن الثلاثة وتوقف العراك.

زفرت أمي بصـــوت عال لمـا رأتنـــي أتبســـم، وأمسكت بالصفيحة وقامت. غافلتها وألقيت حجراً نحوها. خجلت من نفسي لما ارتجفت، وحبست أنفاسي مترقباً. عادت وجلست مكورة يدها في الهواء وصاحت في وجهي كي أسكت، أو أخرج وألعب في الخلاء. وكان شخير عمي قد توقف، وازداد القلق على وجه أمي. مددت يدي إلى حجر آخر. لم أكن أريد، لكني فعلتها. رميته بكل عزمي على الصفيحة التي بين يديها، وأطل (النطع) علينا من الشباك، فهبت أمي واقفة، خلعت مداسها وقذفته في وجهي، فازداد حنقي.. ضربت الأرض بيدي وأمسكت بالمداس، طوحته في آخر الحوش ودلفت مسرعاً من الباب.

* * *

ويوماً بعد يوم قلت رغبتي في البقاء بالبيت ..

أرجع من الكتاب لأعاود الخروج مع الضرير، نمشي في الشوارع والحارات ونسترخي بمنكبينا إلى أي جدار. وساعات كان يقبل علينا ولد من أقرباء الضرير، وسيالته مملوءة بحبات (براغيث الست). نظل نستحلبها معه على مهل، ونسمع حكايته عن

أبيه الذي قال مرة كلمة في حق (النطع) فأدبه بالعصا، ومن يومها احترم نفسه وكلما جاءت سيرة (النطع) أدعى الطرَشُ.

وكنت أنا والضرير نرمي الحصى على الرجال المارين أمامنا، كان الحصى يصيب ظهورهم وأقدامهم وأحياناً رؤوسهم. مع كل رمية كنا نتبادل النظر، ونجهز أقدامنا للركض إذا ما طاردنا أحد. ظنوننا كانت تخيب، فلم يكن أحدُ منهم يلتفت أو يشعر حتى بما نفعله. نندهش لذلك ونتابعهم بأعيننا، كثيرون منهم كانوا يذهبون إلى حرف الترعة ويتمددون وشخيرهم يأتي إلينا من بعيد.

ومرات كانت تجتاحنا الشقاوة، فنقلع بعض الأعواد اليابسة من الأرض، نشذبها ونقلم أطرافها حتى تصبح أحد من السكين، ونتسلل إلى الترعة على أطراف أصابعنا. كنا نكتم أنفاسنا ونتسحب بحذر ممتع نحو الرجال النائمين، ونصوب الأعواد ـ كأنها بنادق ـ على رؤوسهم، ونصيح وندبدب بأقدامنا ونخرج أصواتاً من أفواهنا كطلقات النار، وهم لا يتحركون أو ينقطع شخيرهم لحظة واحدة، ولما يشتد بنا الغيظ ننغزهم ببنادقنا في بطونهم وظهورهم. وأول ما يفيق واحد منهم، نضع أطراف جلابيبنا بين أسناننا ونجرى كما الريح ظنا منا أنه يلاحقنا، وعندما نبتعد ونلتفت وراءنا لا نجد أحداً ويبدو لنا كما لو أنه هب من نومه لسبب آخر وليس بسببنا، فنرجع ونعاود الكرة مرة بعد مرة ولا حياة لمن تنادي! فنشعر بالملل وندعهم في سباتهم.

* * *

من باكر (المسامحة)، وعلينا حفاظ جزءُ (عَمَ) في البيوت ..

قالـــها سيدنا ونحن نتنـــاول الغداء، فانفجر الزيــاط في كل الكتاب. ألقينا بصرر الأكل في وجوه بعضنا البعض وقفزنا في الهواء، وصحنا أنا والضرير بأعلى صوتينا مثلنا مثل العيال، لم نتوقف كلنا عن قول: هيه .. هيه .. هيه ..

واتكأ سيدنا بظهره إلى الجدار، وعوج عمامته متبسماً لنا.

لم ننتبه لدخول إمرأة سيدنا، إلا لما صرخت في وجوهنا.

وهب سيدنا واقفاً، رفع حاجبيه وبان عليه الانتباه وهي تنبئه بأن عربة نقل بمقطورة دهست عاشور النطع، فرمته(فرم) على السكة التي في أول البلدة.

نزل علينا الخبر فوجمنا كلنا، ولما قفز سيدنا من عتبة الكتاب طرنا وراءه.

كنا نجرى بحذاء الترعة، ومعنا نسوة ورجال، وصبيان وبنات، الخفراء كانوا يرتدون ملابسهم الرسمية، وشيخهم يمسك الصفارة في يده ويشخط فيهم وفينا، والضرير يجرى أمامنا كما الحمامة، أسرع مني ومن العيال، ويدفعني بمرفقه كلما أمسكت به.

ونحن في عز الجري، رأيت رجلاً بسروال وصديري مشقوق الجيوب، كان طويلاً وينحني على الناس ويقول: جاءته طلقة من الذرة وخلصت عليه في الحال، وواحد ذو لحية بيضاء حلف بالله أربع مرات وبعدها بالطلاق ثم قال: إن عائلة السني هي التي جرته من هدومه ونزلت على رأسه بالنبابيت، وواحـــد يقول: آمين آمين

لعنة الله على الظالمين! وكانت وراءنا إمراة مكحلة العينين، تولول بلا انقطاع وحولها نسوة ساكتات، ورجل تخين له في البلدة ثلاثة دكاكين، يبكي من أول الطريق والناس تنظر إليه بازدراء.

* * *

أتت أمي على بالى فجأة، فبدأ قلبي في الخفقان.

أزدت من سرعتي وأمسكت بالضرير من معصم يده، جررته جراً وقفلنا راجعين.

الدور كلها كانت تبدو أمام عيني وأنا راجع مفتوحة النوافذ والأبواب، والناس لاتزال تجرى منها ومن الحقول، حتى الزرازير والحمام واليمام هجت من أعشاشها لتلعب في السماء، بيتنا وحده هو الذي كان ساكتاً من بعيد.

تملكني الخوف أول ما فتحت أمي ..

شعرها كان مبلولاً، ومن فتحة الباب لمحت عصا كأنها عصا (النطع) معلقة على المسمار، وملفعة هي الخالق الناطق ملفعته. اقتربت من أمي وأنا مذهول، التقت أعيننا لحظة واحدة، لم أقو بعدها على مداومة النظر. شردت مني عيناي إلى حيث موضع قدمي، وأول ما ظهر مداس أمي في مجال رؤيتي انتبهت، بدا لي حجمه أكبر من المعتاد، وتتساقط عليه قطرات ماء من شعرها المبلول.

كنت أراها وهي تتكاثر حتى غطت المداس كله، وأسمعها كالنقر في أذني رغم أنها بلا صوت. وشيئاً فشيئاً لم أعد اسمع، قل

إدراكي بما حولي، حتى الضرير لم أنتبه إليه وهو يجذب ذراعه مني وينزوي في أحد الأركان.

وران الصمت في المكان ..

الدنيا كلها سكت، الأنفاس، والحيطان، والأبواب، وأنا لا أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول. كان عقلي هارباً مني تماماً، حتى أني لم أفهم ـ وقتها ـ أن النظـرة التي كانـت تلـوح في عين أمـي هي نظرة عتاب.

ومن بين ما أتذكره الآن .. أني سمعت سعلة رجل تأتي من الداخل، ولحظتها اخترق الدم الفائر كل رأسي، واندفعت يداي تلوحان في وجه أمي بلا نظا م. أذكر أيضاً أني ركلت الأرض بقدمي، ونطقت بكلمة أو كلمتين لم يكن لهما معني، وبدا صوتي ـ ذاته ـ وكأنه ليس الصوت الذي أعرفه.

كان غريباً على مسامعي، أشبه بصوت شرائط الكاسيت عندما تدار بالبطيء. كنت أقول وأعيد دون أن أفهم كلمة واحدة مما أقول، وإذا انتظم عقلي وأحكم قبضته على شفتي، كان حلقي يتمرد ويمعق منها الكلام.

كان حالي مزرياً، ولم يأت في بالي أبداً أن صوتي بدأ يحتبس ولم أعد قادراً على الكلام، ولما انتبهت إلى نفسي رجعت إلى الوراء.

رجعت وأنا أخفي وجهـي من عيني الضرير، وأمـــي لا تزال واقفة ترمقني بنفس نظرة العتاب ..

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

شبراوي

obeikandl.com

obeikandl.com

الرجل الجالس تحت أقدام البهيمة الآن قلبه مهموم، حلمات الضرع تروح وتجيء في يده، وأوهام تجر بعضها وفراق لم يكن يحسبه قريب.

توقف طشيش اللبن وساح الوعاء حتى آخره، وهو لايزال تائهاً في ملكوت الله. انتبه لما تململت الجاموسة واستدارت محركة رأسها بنعير ممطوط، هب واقفاً على عجل وهو يربت على كفل بهيمته، ثم التفت ناحية عِجلها الصغير.

كان مشهده يسر العين، مسترخياً بجوار أمه يجتر علفته بكسل، وبين الحين والحين يثني جبهته ويطوحها في كل اتجاه متبرماً من حبل (الرواسة[1]) الجديد.

نبض قلبه وهو ينظر إلى الحجاب المتدلـي من رقبتـه، طـاف بخاطره وجه (أبو علوان) وهو يدق عليه الباب في عز

---

[1] حبل الرواسة هو الحبل الذي يعقد على جباه ورقاب الدواب لتسحب منه.

الليل بلا ميعاد. كانت ساعة ضيق والعِجل بارك على الأرض، يعاف ضرع أمه ويثني قوائمه ويفردها متوجعاً بصوت مسموع، ولولا الحجاب الذي أعطاه إياه هذا الرجل المبروك لراح العجل في شربة ماء، وضاع حَوْلُ [2] محسوب على أصابع اليد مع طلة كل نهار.

* * *

الدار في آخر الكفر ..

حجرتان من الطوب النيء، البحرية للنوم والقبلية للخزين، وحوش يمتلئ بخيرات الله، عنزة وطيور من كل الأصناف وجرو صغير لا يكف عن النباح. وفرن لطخ السواد فوهته، على قبته طاجن من الفخار وأوانٍ من النحاس مقلوبة على فوهاتها وأجولة فارغة وفأس وباقي المستلزمات.

وفي الخارج كومة من كيزان الذرة لا تزال في أغلفتها الخضراء، ومذوَد[3] للجاموسة مدكوك في الجدار على مقربة من الباب، وسياج من أعواد الغاب مليء بالثقوب والفتحات من جراء لعب الأولاد.

الرزق بيد الرحمن والبركة تعم البيت ..

مصحف تحت الوسادة وآخر ملفــوف بحرير أخضــر على رف الدولاب، وأحجبة في رقاب العيال، وراديو عتيق مؤشره

---

[2] يقصد بالحَوْلُ انقضاء السنة أو مرور عام، حيث يتعشم الفلاح من بهيمته أن تأتي له في آخر كل حَوْلُ بمولود جديد.

[3] المذوَد أو (المدود) بلسان أهل الريف، هو المكان الذي يوضع به التبن والبرسيم والعلف، وكل ما تأكله بهائم الأرض التي تخدم الفلاح.

ثابت على إذاعة القرآن الكريم، وحلقة الذكر أمر واجب حتى في أحلك الظروف ..

اجتاز عتبة الباب مسرعاً، وتلفت على زوجته. كانت في آخر الحوش تفرك كيزان الذرة في حجرها، وحولها جمع من الدجاج يتقافز بلا صبر وكتاكيت صغار تسللت من علبة خشبية في الجوار.

قال لها دَهِشاً:

- يا وقعة زي بعضها! إنتي لسه قاعدة عندك؟! يللا يللا دا الوقت خلاص.

وتنهد بأسى ..

- الله يرحمك يا أبو علوان! الله يرحمك يا سِيد الناس! الخلق زي ما تكون مش مصدقة اللي جرى وجيالك من آخر الدنيا! اللي بيمد! واللي بيعيط! واللي راكب على حمار!

رمقته المرأة بطرف عينها، وهبت واقفة. خرجوا كلهم في رهط صغير يتقدمه شبراوي بجلباب أبيض لا يرتديه إلا في المناسبات، ومداس أخرجه للتو من لفافته، ووراءه ثلاثة من العيال واحد على كتفها يمسك بكسرة (بتاو)، والاثنان طار النعاس من عينيهما وبدآ في النقار.

* * *

منذ أن وعى على الدنيا، وأبو علوان يجوب الشوارع والحارات، نحيف فارع الطول يطوق عنقه بمسبحة خضراء،

وحول خصره حزام عريض من الجلد كله ثقوب، وشال أبيض يحيط برأسه وأذنيه تبرز منه طاقية أشبه بالطرطور.

ساعات يمسك بيده شمروخاً، وساعات كرباجاً يطرقع به في الهواء. وفي أيام ضجره ينكفئ على وجهه ممسكاً بعود من الحطب، وينكت في الأرض بالساعات، وإذا اقترب منه الناس لا يرفع رأسه وإن كلموه لا يجيب.

له في كل ساعة حال، وفي كل حال كان مهيباً وله حضور الأولياء، فلم يقذفه ولدُ مرة بطوبة، ولا هاص في وجهه أحدُ، أو مشت وراءه زفة عيال.

لا يعرف من أين أتى ..

ناس تقول: تاه في صباه من بدو يعيشون في جوف الصحراء، وعجائز الكفر يقولون: إنه من نسل الرسول، وأجداده الأولون أتوا من أرض الحجاز، وناس تحلف بأغلظ الإيمان بأن لا له كرامات ولا (يحزنون).

كان ينام في عشة بجوار وابور الطحين، وفي كل صبحية يفرش بضاعته ويبيع الحمص والترمس للعيال. ولما حلت بركاته على شيخ الكفرالحاج لملوم، بنى له حجرة على أطـراف غيطه ولم ينقطع يوماً عن مده بالزاد.

التفت وراءه بقلق ..

كان قد ابتعد كثيراً عن زوجته والعيال، أشار لهم بحنق ولما أقبلوا عليه مسرعين نهر المرأة الكسول، وتوعد الولـــدين بالعقاب

إن لم يكفا عن الشجار، ثم عاود المسير وقلبه لا يكل من الكلام.

عندما كان في صباه أصيب أخوه بمرض شديد، هزال وسخونة بالليل والنهار، فحملوه على حمار وراحوا إلى مستشفى البندر. مكث بها ثلاثة أيام وكما ذهب عاد، ظل يعوي ليلة بأكملها، وكان بينه وبين الموت أقدام.

وجاء الفرج على يد أبو علوان ..

من يومها تعلق به، تزوج بمشورته ومشى في ركابه في كل زيارة لأولياء الله. وساعات كان يذهب معه إلى بيوت الفلاحين وزرائب الأعيان، فهو أدرى من كل الكفر بطباع الحيوان.

* * *

مات الرجل بلا مقدمات ..

كان خارجاً لصلاة الفجر، ووقع أمام داره بلا أنيس ينطقه الشهادتين.

ولولت عليه امرأة عجوز، كانت تمر مصادفة بالطريق. عويلها كان مسموعاً في كل الكفر ويقطع القلوب، لم تتوقف إلا لما أقبل هو والحاج لملوم مسرعين وتقاطر بعدهما الناس.

وفي دقائق تبدل حال الدار، الرجل ميت، والخـــلق حولـــه لا يهمدون. من يأتي بجردل ماء، ومن يجهز مكاناً للصلاة، ومن يجمع هدومه في صرة ويسلمها إلى خادم الحاج لملوم، وطار رجل وأحضر كفناً كان يدخره لأبيه المريض. وهو متيبس الأطراف، يحدق حوله كالغريب، نذر خطر تلوح أمامه، وجدار يتكئ عليه قد

انهار، وضربة في القلب أعجزته إلا عن قول لا حول ولا قوة إلا بالله!

تنهد بصبر نافذ والتفت وراءه من جديد ..

تمنى أن تكف امرأته عن الشغب مع العيال، أن تحس بجلال الموقف وضنى القلب الذي يعانيه. ردعها بغليظ الكلام مرتين ولم تستح، وعيال غافلون إلا عن الأكل والمزاح، وحلقة ذكر راح قطبها وسيد المنشدين.

* * *

هل رهط الشبراوي على دار أبو علوان ..

نسوة في دوائر على التراب كأنه يوم السوق، ورجال من مختلف الأعمار وعيال وبنات في كل مكان.

أناس من الأعيان يمتطون حميراً مسرجة توقفوا بالقرب من المكان، ومشوا بخطوات رزينة نحو دكك خشبية موضوعة بلا نظام. رجل بفانلة ذات أكمام وسروال طويل يعمل في غيط قريب، ترك يد الطنبـــور ومـــال برأسه إلى الأمـــام متطلعـــاً كالمشدوه. وعربة (كارو) محملة بزكائب فول وأغمـــار برسيم، أوقفها صاحبها وقرأ الفاتحة ثم عاود المسير. وكهلان يعيشان من زمن في الخلاء قادمان على أول الطريق، يلبسان ملابس الدراويش، وفي كعبيهما كلاب لا تكف عن النباح، وفي الأفق زرقة تريح العين ونور رباني أخاذ ..

انحرفت امرأة الشبـراوي في صمت صـــوب الحـــريم، وانخرط

الولدان في زمرة العيال، ومضى هو بخطوات مهمومة إلى الدكة التي يتربع عليها الحاج لملوم، اتكأ بيده على مسندها ووقف صامتا، فرفع الحاج لملوم رأسه إليه:

- عايز إيه يا شبراوي؟!

لم ينطق بكلمة، فصاح فيه:

- جرى إيه يا ولة، عايز إيه؟!

- عم الحاج ليه طلب عندك، حبيبك النبي ما تكسفني .

ثم تنحنح، وتابع الكلام وشفتاه ترتعشان:

- كت عايز أبو علوان يندفن في التربة بتاعتنا؟

نظر إليه الحاج لملوم باستغراب:

- بتقول إيه يا شبراوي!

- أيوه يندفن في التربة بتاعتنا، دا الطلب اللي بترجاه منك.

- كان على عيني يا شبراوي، أبو علوان في كفالتي حي ولا ميت دا عهد خدته على نفسي.

فأجابه بصوت مأزوم:

- والنبي يا حاج دا إنت أول العارفين باللي بيني وبينه!

- حل عن سمايا دلوقتي يا شبراوي، وأبو علوان هيندفن حدانا أنا بعت الواد محمدي خلاص علشان يفتح تربة العيلة.

وما كاد شبراوي يهم بالكلام، حتى رمقه الحاج لملوم بنظرة تنبئ بأن هذا الأمر ليس فيه فصال، وأشاح أحد الأعيان في وجهه قائلاً:

- سيب عمك الحاج في حاله ويللا يللا بلاش وجع دماغ.

* * *

انتحي جانباً، والحاج لملوم والأعيان يتبسمون!

تكوم على بعضه جالساً فوق التراب، وسرحت عيناه .. مأذنة الجامع كانت تلوح أمامه من بعيد، وسحب صغيرة انزوت بجوار بعضها في أطراف السماء ..

تذكر أباه وأخاه ووهدان جاره في حد الغيط وكل من مات، خيل إليه أنه جالس أمام ربه ساعة الحساب والملائكة والميزان وهول اليوم العظيم، تاهت دنياه في آخرته وكادت أن تنفتح عيناه على بكاء ونحيب.

عض على شفته من الأسى وعيناه المحتقنتان تطلان على الناس باكتئاب، الجالسون على الدكك يتسامرون، والرجل الذي يصب الشاي للحاج لملوم، ونسوة لا تتوقفن عن الكلام، وحماران من حمير الأعيان مشتبكان في عراك ولا يكفان عن تبادل الركلات، والرجل الصالح انعتق من الدنيا وغاب في الأفق الرباني البعيد ..

جاءا من سفر منذ أيام، ضريح بعيد وخلق تعرف كرامات الأولياء، أفسح لهما الناس هناك المكان، أجلسوه هو الآخر بجوار صاحب المولد إكراماً لأبو علوان.

في آخر الليل وبعد أن انصرفت النسوة والأولاد، حلفوا بالله على الرجل أن يجلس على دكة الإنشاد. تربع وفرد ذراعيه وبان

في وجهه الصلاح، ظل ينشد ويذكر الله ويلون المديح ويطيل فيه ويعيد، والرجال تتمايل وتهيم، وحب أهل البيت يفلق القلوب ويجلجل في السماء. مكثا يومين من دار إلى دار، أحجبة وأسرار، ومباخر وألغاز وجلوس في حضرة مشايخ وأصحاب كرامات، صحبة كلها ثواب، وتحدثا وهما عائدان عن ميعاد جديد عند سيدي إبراهيم.

تنهد شبراوي بقلب موجوع، وأتبع تنهيدته بهزة رأس واستغفار. كانت زوجته على مقربة منه، صوتها يخرق طبلة أذنه وهي تحكي لجاراتها عن عفرتة العيال وطيورها التي ضاعت عليها وجبة الصباح. نظر إليها بصدر ضيق وعينين يملؤهما غيظ مكتوم، ولولا رهبة المقام لقذفها بحجر أو قام وأهال على رأسها التراب.

* * *

أطل شيخ الجامع وقال بصوت أخاذ:

- وحدوه، وحدوه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولاح من ورائه النعش مغطى بلحاف قديم ويحمله أربعة رجال، فطأطأ الخلق رؤوسهم وهبوا كلهم واقفين. أسدلت طلة الموت رهبة على المكان، فانقطع ضجيج الأطفال وحملقت أعينهم بوجوم، وانحبس الكلام. لم يعد يسمع إلا دبيب الأقدام.

مشى الرجال بالنعش بضع خطوات، وسرعان ما التحم طابور الناس. كان الحاج لملوم يسير في المقدمة هو والأعيان، عاقدين

أيديهم أمام بطونهم وصامتين، ووراءهما شيخ الجامع يختلس النظر إلى الدرويشين. وعادت النسوة إلى الأرض ليبدأن الكلام من جديد، وتسلل عيال إلى الصفوف ومشوا بجوار الرجال، وأدخلت امرأة ثديها غير مبالية ببكاء الرضيع ورنت ببصرها نحو أبو علوان الممدد فوق رؤوس الناس.

وما كادت الجنازة تسير بضع خطوات، حتى اخترق شبراوي الصفوف ودفع الرجل الذي يحمل ذراع النعش من الأمام، ووضع الذراع على كتفه هو ودق قلبه واستمات، وأخذته نفحة لا تجيء إلا في ذرى الأذكار. رمقه الحاج لملوم بنظرة من نار، فلم يأبه له واستمر قابضاً على الذراع بيد من حديد، وشيئاً فشيئاً تملكته الجلالة وأطاح برأسه يميناً وشمالاً كالمجاذيب وتاه في دنيا غير دنيا الناس.

اقترب منه رجل بايمائة من الحاج لملوم ووضع يده على الذراع، فرمقه شبراوى بغضب ودفعه بمرفقه دفعة أوقعته على الأرض بين دهشة الناس. خطا بعدها خطوة ولم يقدر، خيل إليه أن الدنيا كلها تجثم على كتفه، وصاحب النعش يأبى المسير ويأمره بالوقوف، فشاطت فيه النار وصاح بأعلى صوته:

- وقف عندك! وقف! وقف! الخشبة تقيلة يا ناس!

وأردف بصوت ممطوط كله بكاء:

- مدد .. مدد .. أبو علوان مش عايز يمشي! أبو علوان واخد على خاطره وزعلان!

التفت إليه مذعوراً الرجل الذي على يساره، أناخ كتفه هو الآخر وصاح:

- صحيح! صحيح والله! الحقونا يا ناس! الحقونا يا ناس!

وامتثل الرجلان الآخران، انبطوا كلهم مرة واحدة، وهبط النعش على الأرض والتف حوله الناس.

قلب الحاج لملوم كفيه وابتعد هو والأعيان عن الزحام، وغاضت الدماء من وجه رجل عجوز وهاج في الناس:

- الله أكبر! الله أكبر! طلباتك إيه يا أبو علوان! أطلب وقول يا سِيد الناس!

ودار بعينيه في الخلق الواجمين، وهو مستمر في الصياح:

- يا خلق الله! يا مسلمين! يا موحدين بالله! كله يقف مطرحه لحد ما نشوف الحكاية هترسي على إيه!

وانفلت أحد الدرويشين من الزحام، منثنياً على النعش يكلم أبو علوان:

- أنا داري بكراماتك من زمان! داري بيها وجلال الله وكنت عارف إنك هتعملها يا سِيد الأنام! والكلام ده لسه قايله لأخويا حسان واحنا جايين في الطريق!

وشبراوي القابض على ذراع النعش، يحدق في الدرويش برهبة وعيناه غائمتان.

التفت الدرويش بعدها إلى الناس، ورفع ذراعيه إلى السماء:

- شاهدين! شاهدين يا ناس!

فتعالت الصرخات في نفس واحد:

- شهدنا لك يا أبو علوان! شهدنا لك وطلبك على العين والراس! واقتربت النسوة اختلطن بالرجال، والكل عيناه على الحاج لملوم.

فصاح الرجل كالمأخوذ.

- والعمل؟!

أسرع إليه الدرويش الآخر، أمسك بكم جلبابه وقال:

- دا ولي من أولياء الله، والولي يندفن مطرحه يا محترم يا كبير.

ثم رفع يده في الهواء مخاطباً الناس:

- أنا قلت وبلغت وخالي مسئولية لحد يوم الدين، سيدي أبو علوان سامع وشايف إيه اللي بيحصل وبيشاور لكم دلوقتي بصباعه على المكان اللي عايز يندفن فيه!

وتبعه شبراوي بأعلى صوته، وسبباته تروح وتجيء في الهواء:

- يسلم فمك يا سِيدنا الدرويش! يسلم فمك يا راجل يا مبروك! يللا يللا يا ناس الحكاية بانت خلاص.

ووقف الحاج لملوم حائراً، والخلق ينسلون من حوله مسرعين. خطفوا النعش وعادوا به إلى الدار، ودارت الفؤوس، وأحضر بعـض الرجال تراباً وجرادل ماء، وتعالى الصياح والتكبير.

وبعد أن سدوا شبابيك الدار والباب بالطين وقوالب الطوب، نادى الدرويشان على ذكر الله، فتشابكت الأيدي وتمايل الرجال وهبت النساء بالزغاريد، والعيون كلها على ضريح أبو علوان!

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

أيام في المنفى

obeikandl.com

obeikandl.com

أغلقت الهانم باب السيارة ونقرت بأصابعها على حافة النافذة الخلفية، فتطلعت إليها ليلى من الداخل.

قالت بنبرة آمره:

- خليكي قاعدة مطرحك، غبت دقيقة غبت ساعة، لا حس ولا حركة طول ما سِيدك حسام نايم.

فهبطت البنت برأسها:

- حاضر، حاضر ياستي.

عبرت الهانم الطوار، تمهلت برهة أمام فاترينة المحل المقابل للسيارة وعيون ليلى ترمقها من الخلف، استراحت لما رأت سيدتها تلج عتبة المحل.

* * *

بشر كثيرون يملأون الطوار ..

obeikandl.com

رجال ونساء، كبار وصغار، يروحـون ويجيئـون، خطواتـــهم أسبق من رفيف العين ولا يتوقفون عن الكلام. وعربات بمختلف الأحجام، كلها تغلي، وتشهق وتزعق على بعضها بأصوات أعلى من نعير الجاموس.

تطلعت برهبة من وراء الزجاج ..

الخلق غير الخلق، الوجوه كلها غريبة، لا تعرف أحداً من كل هؤلاء الناس. وأبنية في كل مكان، والمحلات، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، وعلى الجانبين، ليس لها نهاية.

حام في بالها للحظة أن تنزل من العربة، تحسست بالفعل مقبض الباب، لكن شيئاً منعها. قال لها: إنها لو خطت بقدمها ولو خطوة واحدة سوف تضيع! تضيع ولن يعرف لها أحدُ بعدها طريق!

كان حسام نائماً في حجرها، تسمرت نظراتها عليه وشرد قلبها ..

طالما ألحت عليها أمها أن تحمل أخاها الصغير، حتى تفرغ من كنس البيت أو غسل الأواني ونشر الغسيل .. أخاها هلال ابن الشهرين، لم تكن تحمله إلا بالضالين، وكلما سألتها أمها أن تفعل إما أن تختلق لها عذراً أو تهرب من البيت، وعندما طفح بها الكيل صاحت فيها قائلة: "لا وراكي شغلة ولا مشغلة، وبرضك مش عايزة تشيليه! والنبي لأوريكي النجوم في عز الضهر".

اندفع الدم برأسهـــا وهي تتذكر وجه أمهـــا، غمرهـــا إحساس

كثيف بأنها نفذت وعيدها ..

* * *

برهة ولم تطق الانتظار، نزلت بهيكلها الصغير وعيونها لا تكف عن التلفت.

اجتاحتها الدهشة ..

لم تكن تحسب أن فاترينة المحل بها كل هذه الأشياء، تعلق بصرها بواحدة، وبالثانية، والثالثة، ودارت عيناها في كل اتجاه. احتارت في أي منها تستقر ببصرها عليه، واحتارت في أسمائها، استعصى عليها معرفة ولو اسم واحد منها، وقلبها يقول: آه لو تطير نادية وتحط بجانبها الآن!! وترى معها الذي تراه.

شردت في نادية فخبت زهوة المعروضات في عينيها، وانسحبت نظراتها إلى المخمل القاني الذي يبطن قاعدة الفاترينة.

جاءت على خاطرها وهما يتسرسبان على أطراف أصابعهما، ويغافلان عم لملوم بائع البرتقال. يخطفان فردة مداسه أو كف الميزان أو أي شيء من متعلقاته، ويجريان وضحكاتهما العالية تختلط بنافورة الشتائم التي يلاحقهما بها. لم يكن لها جهد على الركض، كانت تسرع بإلقاء ما تحمله حتى يكف عن مطاردتها، أما نادية فهي أسرع منها ومنه. تطير كالريح وتختبيء بين أعواد الذرة، تنتظرها إلى أن تجيء، وتقفان بالساعة تلعبان وتسترجعان شتائمه وتضحكان عليها.

تطلعت بقلق إلى المحل ..

كانت سيدتها تقلب أشياء براقة في يدها، وتطيل التأمل فيها.

تابعتها لحظة بلحظة، ملأت عينيها من المساحيق التي تغطي وجهها والرسوم التي تزين فستانها. أحصتها واحدة بعد واحدة، من فتحة العنق إلى أطراف الركبة، وجاءت أمها على بالها ..

أتت عارية الرأس تماماً، لا طرحة أو حتى خرقة تحجب شعرة واحدة من شعرها، وتختال هي الأخرى بفستان قصير ومساحيق بكل الألوان، فأطرقت خجلة من نفسها ووجه أبيها يلوح لها وكأنه غاضب منها.

تزداد وحشتها كلما تذكرته ..

لا تزال رنة صوته في أذنيها، من بين الكلمات التي كانت تملأ البيت يوم أن جاءت إلى مصر.

كان راقداً في فرشته، أراد الوقوف لتحية ممتاز أفندي الذي جاء لأخذها إلى شقة الهانم في المهندسين. بمجرد أن حاول النهوض هجمت عليه علة الصدر، أسرعت إليه أمها بشربة ماء، وتوقفت هي وأخواتها الست عن الحركة، ولما خفت حدة السعال جذبها إليه.

لم تشأ أمها أن تطول هذه اللحظة، جففت دمعها بطرف جلبابها وأخذتها إلى ممتاز أفندي.

سارت معه خطوتين والتفتت وراءها ..

أمها لا تزال واقفةً، رأتها بعينيها وهي تمسح دمعة علقت بأهدابها، وسمعتها تقول: "مع السلامة يا حبة عيني". تملكها

الانفعال ساعتها، أرادت الإفلات من قبضة ممتاز أفندي وإلقاء نفسها في أحضانها، غير أنها كانت قد استدارت ودلفت من عتبة البيت.

* * *

سرعان ما أفاقت إلى نفسها، خافت أن تضبطها سيدتها وهي واقفة أمام المحل، فاستدارت وأسرعت بعبور الطوار بقدر ما تسعفها خطواتها العرجاء. فتحت باب السيارة ومددت حسام على المقعد الخلفي، وانزوت في شبر واحد إلى جواره.

قبل أن تجيء إلى مصـــــر بيومين، سمعت أباها يقول لأمهـــــا :

" البت صغيرة ومش قد خدمة البيوت ".

خرجت من البيت في هذا اليوم مع طلعة الشمس، تظل نائمة كل يوم إلى قرب الضحى، لا تصحو قبل ذلك أبداً، إلا هذا اليوم، يوم السوق، تقوم من طلعة النهار وتفلت من البيت قبل أن يراها أحد. تجد نادية في انتظارها، تتسلل وراءها وترميها بالحصى أو تفاجئها بصرخة في أذنها. ترد لها نادية الصاع صاعين، تجذبها من شعرها أو تدفعها بكلتا يديها وتجريان إلى السوق.

ركبت المرجيحة، ولعبت عريس وعروسة. جاء عليها الدور أن تكون عروسة، فقال ولد: "البت العرجة دي متنفعش عروسة"، لم تترك حقها، ظلت تهيل عليه التراب حتى دخل في عينيه وضحك الأولاد والبنات عليها وعليه. ولما عادت إلى البيت، كان

أبوها لا يزال في فرشته وأمها إلى جواره. دخلت على أطراف أصابعها، ومن خلف الباب سمعته يقول: " على عيني مرواحها مصر وخدمتها في البيوت "، وجاءها صوت أمها شديداً قاطعاً: " يا خويا جمد قلبك كده يعني هيجرالها إيه!".

وطال الصمت بينهما، إلى أن قال أبوها: " طيب أوديها لحكيم الوحدة، يمكن يديها حاجة لرجلها، أي حاجة تصلب طولها".

ذهبت معه في اليوم التالي، كان يمشي متوكئاً على عصا من الجريد، وكعباه المليئان بالشقوق يطلان من مداسه العتيق. لم ينطق بكلمة طول الطريق، ولم تفتح فمها هي الأخرى بحرف واحد.

* * *

برهة وانفتح باب السيارة وجلست الهانم في المقعد الأمامي، قبل أن تدير المحرك التفتت إليها قائلة:

- إنتي قلتيلي بلدكم اسمها إيه؟

- المنصورية يا ستي.

- المنصورية! فين المنصورية دي؟!

ردت بحماس:

- نص ساعة يا ستي بعربية (عم شفيق) السواق، نص ساعة بس لحد موقف الكيت كات.

هزت الهانم رأسها، وقالت بصوت أقرب إلى الزوم منه إلى الكلام:

- أيوه أيوه، خلاص خلاص.

* * *

انطلقت السيارة وانبعث من المسجل صوت يصدح بنغمة لعوب، فتبسمت ليلى واستطالت بعنقها إلى الأمام، لكن سرعان ما تذكرت ما قاله ممتاز أفندي فهبطت برأسها. حصرت مجال بصرها بين دواسة السيارة، ومطفأة السجائر المعلقة بظهر المقعد الأمامي.

أمام مدخل العمارة التي تقطنها الهانم، توقف وضغط على معصمها محذراً: " أدينا وصلنا يا ليلى حسك عينك يا بت تمدي إيدك على حاجة، ولا ترفعي عينك في وش الست، عينك في الأرض على طول ".

كان يتكلم وهي صامتة ..

وأحست بروحها تتسرب منها، مع كل خطوة تصعدها معه على الدَّرج، ولما توقفا أمام باب الشقة أمسكت بطرف بنطاله، فزغدها في صدرها قائلاً: " نزلي إيدك جنبك يا بت! هو إحنا في البلد ".

وقبل أن يدق الجرس، أشار لها بإصبع السبابة قائلاً: "وكمان تاكلي نص بطن". لم ترد عليه، سقط قلبها في قدميها واختبأت وراءه دون أن يشعر. وعندما أطلت الهانم من الباب، انتبه إلى مكانها وشدها من أذنها وهو يزجرها بحنق:"تعالي يا مضروبة ".

تفحصتها الهانم ثم قالت: "إيه اللي إنت جايبه ده يا ممتاز؟!".

فرجع إلى الـــوراء، قائلا: "لا لا يا ست هانم! إسألينـــي أنا!

البت دي محصلتش ولا هتتوجد تاني، وبينضرب بيها المثل في الناحية بحالها، دي خدامة أباً عن جد".

وهي تنظر إلى شفتيه وشاربه، ولا تدري إن كانت ماتت أم لا تزال حية.

* * *

لم تكتم فرحتها عندما صعدت السيارة على الجسر العلوي الذي يفصل الزمالك عن إمبابة، اجتاحتها نسمات الهواء من كل ناحية وخفق قلبها، فكأنها ترى أشياء وأبنية شاهدتها عندما جاءت مع ممتاز أفندي. لم يشأ أن يركبا الأتوبيس حتى لا تضيع منه، سار بها في هذا الشارع الذي تراه من أعلى الجسر .. نعم هذا الشارع!

فهتفت بلا وعي:

- ستي ستي مش الكيت كات قريبة من هنا؟!

- كيت كات! كيت كات إيه يا بت!

- الكيت كات يا ستي! الكيت كات اللي فيها موقف التاكسات اللي بتودي بلدنا!

- وحشتك! وحشك الناموس إياك والفقر والجلة والبهايم!

- أمال يا ستي! دي حبة عيني! وقالب الجلة يا ستي كت ببطه وأشيله على راسي وقلبي فرحان.

- كده! طب خلاص يا فالحة!

وفى لحظة والسيارة تهدئ للوقوف خلف طابور من

السيارات، كانت قد فتحت الباب وتجرى بأقصى عزمها والهانم تنظر إليها غير مصدقة.

* * *

obeikandl.com

المحتويات

البقاء لله	7
أحباب الله	13
في أول النهار	21
مشوار	31
شيء حدث	41
لقمة العيش	55
آلام صغيرة	75
شبراوي	93
أيام في المنفى	109

obeikandl.com